نوريت بيلد- إلحنان*

جغرافيا العداوة والإقصاء!
تحليل متعدّد الوسائط للكتب المدرسيّة المتداولة في إسرائيل[1]

(*) تعريف

نُشرت هذه الدراسة في مجلة (Visual Literacy) في العام ٢٠٠٩، المجلد ٣٧، العدد ٢، ص. ١٧٩- ٢٠٨، وهي تشكل جزءًا من بحث شامل أجرته الباحثة عن صورة العربي في مناهج التعليم الإسرائيلية ويصدر قريبا بالانكليزية تحت عنوان Palestine in Israeli School Books: Ideology and Propaganda in Education وذلك عن دار I.B. Tauris، وستصدر ترجمته العربية عن المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية- مدار في العام ٢٠١٢.

ملخص

تتناول هذه الورقة الأساليب المتعدّدة الوسائط التي يُعاد تشكيل الأيديولوجيات بواسطتها في كتب الجغرافيا المتداولة في المدارس الإسرائيلية.

وتستعرض الورقة بالتحليل خمسة كتبٍ من الكتب المتداولة في المدارس اليهودية في إسرائيل،[2] نظرًا إلى توظيف الوسائل البصرية، كالصور والخرائط والرسوم البيانية والأيقونات والألوان، بهدف إعادة تشكيل سياق الخطاب المعرفيّ والسياسي في التعليم ووضعه

* تدرِّس نوريت بيلد- إلحنان مادة تعليم اللغة في الجامعة العبرية وفي كلية دافيد يلين للمعلمين في القدس. وتركّز الدراسات التي لا تزال تعدّها منذ العام ١٩٩٥ على التعليم المدرسي، والخطاب العنصري في المدارس، والكتب الدراسية في إسرائيل، وتطوُّر اللغة المحكيّة والمكتوبة في المدارس، والحوار في الصفوف المتعددة الثقافات. وإلى جانب التدريس تلقي إلحنان المحاضرات وتكتب المقالات عن القضايا المرتبطة بالاحتلال الإسرائيلي لفلسطين. وبناءً على نشاطها في هذا المجال، نالت في العام ٢٠٠١ جائزة ساخاروف لحقوق الإنسان وحرية التعبير (Sakharov Prize for Human Rights and the Freedom of Speech)، التي يمنحها البرلمان الأوروبي، مناصفةً مع البروفسور عزت غزاوي من جامعة بير زيت. وإلحنان هي كذلك أحد الأعضاء المؤسسين لمحكمة راسيل لفلسطين (Russell Tribunal on Palestine) (بروكسل، آذار ٢٠٠٩)، وهي عضوٌ في دائرة الآباء: آباء فلسطينيون وإسرائيليون ثكالى من أجل السلام والمصالحة. كما تشترك إلحنان مع الدكتور سامي عدوان من جامعة بيت لحم في ترؤّس اللجنة الدولية للتعليم في ظل الاحتلال.

في غير موضعه. وتعزّز الملاحظات التي يضعها علماء الجغرافيا الاجتماعية والسياسية التحليل السيميائيّ لهذه الكتب المدرسية.

وتمثّل كتب الجغرافيا التي تُدرَّس في المدارس الإسرائيلية ما يسمّيه فان ليوين أنواعًا متعدّدة الوسائط (Van Leeuwen، 2005a، p. 80). وتتألّف البنية العامة التي تشكّل هذه الكتب من توظيف أساليب متعددة الوسائط، كالصور والرسوم التوضيحية، والخرائط، والرسوم البيانية، والتصاميم، والألوان والعبارات اللفظية.

كما تفترض الورقة بأن كتب الجغرافيا المقرّرة في مدارس إسرائيل تعمل على تشويه الحقائق والمبادئ العلمية التي يشملها التمثيل البصري واللفظي من خلال الرسائل السياسية، والتزام تلك الكتب بتعزيز الهوية اليهودية الإقليمية (الجغرافية) والقومية التي تستند في جانبٍ كبيرٍ منها على إنكار الهوية الفلسطينية. ويعزّز تشويه الحقائق الجغرافية وطمْس أية حياةٍ ذات معنىً إلى جانب حياة اليهود حالة العداوة، ويعيد إنتاج النخبة العنصرية.[٣]

المصطلحات المفتاحية: التحليل المتعدد الوسائط، الجغرافيا، الخطاب العنصري، التمثيل، الفلسطينيون.

مقدمة

تدرُس هذه الورقة خمسة كتب من كتب الجغرافيا المقرّرة في المدارس الإسرائيلية، والتي نُشرت في الفترة الواقعة بين عاميْ ١٩٩٤ و٢٠٠٣ بعد التوقيع على اتفاقيات أوسلو بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية. وتصرّح جميع هذه الكتب بأنها تتوافق مع المنهاج الدراسيّ الوطنيّ الحالي، وقد أجازتها وزارة التربية والتعليم كلّها باستثناء واحدٍ منها.[٤] وقد اخترنا عيّنة الكتب المدرسية المذكورة بحسب درجة انتشارها وذيوعها في أوساط المعلمين.[٥] وهذه الكتب هي على النحو التالي:

"الناس في المكان" (People in space)، للصف التاسع.

"إسرائيل: الإنسان والمكان – فصول مختارة في الجغرافيا" (Israel–The Man and the Space – selected chapters in geography).

"جغرافيا أرض إسرائيل" (The Geography of the Land of Israel)، للصّفين الحادي عشر والثاني عشر.

"المستوطنات في المكان: فصول في جغرافيا المستوطنات في العالم" (Settlements in space: Chapters in the Geography of settlements in the world)، للصّفين الثامن والتاسع.

"بُلدان حوض البحر الأبيض المتوسط" (The Medite-ranean Countries)، للصف الخامس.[٦]

يتطرّق الفصل الأول من هذه الورقة إلى الأساس الأيديولوجيّ الصهيونيّ الذي تستند إليه الدراسات الجغرافية في إسرائيل وتوظيف الجغرافيا في ترسيخ الهوية الإقليمية اليهودية. ويتناول الفصل الثاني الصور اللفظية والبصرية التي توظّفها كتب الجغرافيا المدرسية في تمثيل الفلسطينيين. ويناقش الفصل الثالث أساليب رسم الخرائط التي تقوم على إقصاء الآخر، ولا سيما الأساليب التي تُعمِلها الخرائط لتشويه الواقع الجيو-سياسي للمنطقة وإقصاء السكان الأصليين في هذه الأرض. وتعرّج الورقة، بعد ذلك، على نزع الشخصنة عن المواطنين الفلسطينيين من خلال صور التمثيل النمطية كالرسوم الكرتونية العنصرية، والأيقونات العنصرية والصور المهينة. ويستعرض الفصل الأخير من هذه الورقة تصنيف الصور المستخدَمة في اللغة السردية الشارحة (meta-narrative) التي تتناول مسألة 'التطوّر'، التي يعني التقدّم فيها انتصار 'الحالة اليهودية' على 'الحالة العربية' أو غزو الشرق الأوسط من قبل الغرب. كما يناقش هذا الفصل المصدر السيميائيّ للمعنى.

السؤال الذي تطرحه الدراسة

يطرح فان ليوين (Van Leeuwen، 1996، p. 35) أفضل صيغةٍ للسؤال العامّ الذي تسعى هذه الدراسة إلى الإجابة عنه:

"كيف يتمّ تحويل الممارسات الاجتماعية إلى أشكالٍ من الخطاب حول الممارسات الاجتماعية [...]، بمعنى ما هي الوسائل المتاحة لنا للقيام بذلك، وبمعنى كيف نقوم بذلك بالفعل في سياقاتٍ مؤسساتيةٍ محددةٍ تسودها علاقاتٌ محددةٌ مع الممارسات الاجتماعية التي تنتج صور التمثيل؟"

يشير السياق المؤسساتي والممارسة الاجتماعية في هذه الورقة إلى تعليم الجغرافيا في الكتب المدرسية التي تُدرَّس في إسرائيل. وتوظِّف هذه الكتب نصوصًا متعدّدة الوسائط لنقل رسائلها. وترتكز العلاقات المحدّدة التي تقيمها تلك الكتب مع الممارسات

الاجتماعية، التي تنتج صور التمثيل من خلالها، على التفرّع النصي (hypertextuality)، وذلك وفقًا للمفهوم الذي يسوقه جينيت (G. Genette، 1982، p. 12-14). وبحسب ما يراه جينيت، يشير التفرّع النصي إلى أية علاقةٍ تقوم بين نصٍّ معينٍ (ب) مع نصٍّ سابقٍ عليه (أ)، بحيث يُستنبَط منه أو "يُطعَّم" به. ويبيّن جينيت أن هذا الاستنباط قد يكون على أشكالٍ عدة: فقد لا يأتي النص (ب) على ذكر النص (أ) على الإطلاق، مع أنه لا يستطيع أن يوجد من دونه، لأنه يشكّل صورة تحوُّله.

وتمثّل الكتب المدرسية نصوصًا مفرَّعة (hypertexts) لكلٍّ من النص الأصل أو النص السابق (hypotext) الاجتماعي السياسي المهيمن والنصوص المعرفية المرتبطة به. كما تعبّر هذه الكتب عن تحويل، أو حتى عن إعادة تشكيل سياق هذه النصوص (Bernstein، 1996) ليتناسب مع سياق العملية التعليمية المستهدفة. ويعرِّف هودج وكريس (Hodge and Kress، 1993: 10) التحويل (Transformation) على أنه "تدخُّل جائز". فهو يشتمل على "حذف نسقٍ (syntagm) مع عناصره أو استبداله أو جمعه أو إعادة ترتيبه". وبذلك، "لا تعتبر التحويلات 'بريئة'" (Bernstein، 1996). فكما يبيّن فان ليوين (Van Leeuwen، 2007: 96)، "فإن ما يتم تحويله بالضبط يعتمد على المصالح والأهداف والقيم التي يتضمّنها السياق الذي تُعاد فيه صياغة سياق الممارسة المعنية".

ويشير بيرنشتاين (Bernstein) إلى أن التواصل البيداغوجي يعمل على نحوٍ انتقائيٍّ فيما يتصل "بالخطاب الكامن الذي يمكن إدراجه ضمن عملية التدريس" (١٩٩٦: ٤٢). ويقوم مؤلّفو الكتب المدرسية الذين "يعملون في حقل إعادة صياغة السياق" (Bernstein، 1996: 39-41) بانتقاء العناصر المناسبة من أحد الحقول المعرفية، وإعادة توزيعها ضمن قنوات التواصل البيداغوجي وفقًا للقواعد التي لا تخلو من طابع أيديولوجي (Bernstein، 1996: 49). ولا تنظِّم القواعد المتَّبعة في إعادة صياغة السياق 'ماهية' التدريس فحسب، وإنما 'كيفيته' كذلك. وبعبارةٍ أخرى، تشكّل هذه القواعد نظرية التدريس. وتقترن قواعد إعادة صياغة السياق مع القواعد التقييمية التي تسعى إلى "نقل المعايير [و] إنتاج حاكمٍ للوعي" (Bernstein، 1996: 46). ولذلك، يفترض بيرنشتاين (١٩٩٦: ٤٧) بأنه يجري "نزع أشكال الخطاب من مواضعها وترحيلها وإعادة تركيزها وفقًا للمبادئ البيداغوجية" في عملية إعادة صياغة السياق وتشكيله. وبذلك، لا تعتبر أشكال الخطاب التي توظّفها الكتب المدرسية في أيّة حالٍ من الأحوال مماثلةً للأساليب المعرفية في الخطاب الذي تستخدمه. وكما تقول كوفين في دراستها حول كتب التاريخ التي تُدرَّس في المدارس الثانوية، فإن هذا الخطاب يضع "السياسة الصارمة التي تملي الالتزام بالحقيقة على المحكّ" (Coffin، 1997: 201).

منهجية هذه الدراسة والأساس النظري الذي تستند إليه

تمثّل كتب الجغرافيا المدرسية نصوصًا متعددة الوسائط. وهي توظِّف مجموعةً متنوعةً من الأساليب اللفظية والبصرية من أجل نقل القيم والمعاني التي تريدها. ويتبنّى التحليل المتعدد الوسائط الذي تستخدمه هذه الورقة المبادئ الاجتماعية- السيميائية في التحقيق (Van Leeuwen، 2005)، وهي تعتمد بصورةٍ رئيسةٍ على ما ألّفه كريس (Kress) وفان ليوين (Van Leeuwen) اللذان تتمثل فرضيّتهما الأساسية فيما يلي:

> "بما أن المعاني تُصنَع كإشاراتٍ بطرقٍ متمايزةٍ وفي صيغٍ محددة... بمعنى أن ما يجري تمثيله في علامةٍ أو تراكيبَ علامةٍ يحقّق المصالح، ووجهات النظر، والقيم والمواقف التي يتبنّاها أولئك الذين يصنعون تلك العلامة [...] فالتمثيل 'حاضرٌ' دائمًا".
>
> (Kress 2003, p. 37 and p. 44).

وترفض وجهة النظر هذه فكرة الاعتباطية، وهي تشير إلى أنه:

> "يتم تحفيز العلاقات القائمة بين الدالّ (signifier) والمدلول (signified) في جميع الأحوال، بمعنى أن شكل الدالّ، و'هيئته'، الذي يُدرس من ناحيةٍ ماديةٍ أو مجردة، يجري اختياره بسبب ملاءمته للتعبير عمّا يراد الدلالة عليه".
>
> (Kress 2003, p. 42).

ولذلك،

> "ينبغي علينا أن نجد طرقًا لفهم ووصف تفاعل هذه المعاني بين مختلف الصيغ في كلٍّ متماسكٍ، أي ضمن النص".
>
> (Kress 2003, p. 37).

الأساس الأيديولوجي الصهيوني

لقد "أدركت الصهيونية، منذ البداية، أهمية تدريس الهوية الإقليمية" (Bar-Gal، 1993b، p. 421).

يتألّف الأساس الأيديولوجي الذي يستند إليه تدريس مادة الجغرافيا في مدارس إسرائيل من الرسالة الصهيونية المتعلقة باستعادة الوطن وإعادة الاستيطان فيه على يد أبناء إسرائيل، الذين عادوا إليه، وهم يملكون الحقوق التاريخية الحصرية في أرضه، بعد ألفيْ عامٍ قضوها في المنفى.

وفي دراسةٍ نُشرت مؤخرًا حول الكتب المدرسية المتداولة في إسرائيل، تؤكّد فيرر (R. Firer) في كتابها الذي صدر في العام ٢٠٠٤ على أنه "أُعيدَ تأسيس دولة إسرائيل في العام ١٩٤٨" (وأنا أُبرِز التأكيد بالخط العريض). وتستند هذه الجملة في أساسها إلى الفرضية، أو حتى إلى الاعتقاد القائل بوجود "دولة إسرائيل" أخرى في زمنٍ غابرٍ آخر.

ويشير يفتاحئيل (Yiftachel، 2006، p. 61) إلى أن "شكلاً حصريًا من القومية الإثنية الإقليمية نشأ في إسرائيل من أجل 'إضفاء سمة السكان الأصليين' على المهاجرين اليهود على وجه السرعة، ومن أجل طمس وجود الشعب الفلسطيني على هذه الأرض قبل وصول اليهود الصهاينة إليها أو التقليل من شأن هذا الوجود أو تهميشه".

وينظر إلى اليهود الجدد "الذين تمّت أصلنَتهم" على أنهم غربيون معاصرون يمثلون السلالة المباشرة للعبرانيين الذي ورد ذكرُهم في الكتاب المقدس. وفي هذا الجانب، لا تقدّم الكتب المدرسية التي تدرّس مادة الجغرافيا أية معلومات حول المنطقة التي عاش فيها العرب الفلسطينيون أو حول حياتهم، سواء أكانت هذه المعلومات تتعلق بالزراعة، أم الظروف الاجتماعية، أم التغيرات الريفية أو الحضرية التي أحاطت بهم، خلال فترة الألفيْ سنةٍ من 'الغياب' اليهودي. ومع ذلك، تأتي هذه الكتب على ذكر لهفة اليهود وتوقهم إلى الوطن المفقود. فعلى سبيل المثال، نجد النص التالي في كتاب "بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط" (ص. ٥٤) إلى جانب خريطة لهذه البلدان:

> "لو رُسمت هذه الخريطة قبل ١٠٠ سنة، لما كان من الممكن أن يوجد لونٌ خاصٌّ لليهود لأنهم كانوا معظمهم يعيشون في بلدان أخرى (فقد كان اليهود في المنفى على مدى ألفيْ سنة). إن أرض إسرائيل هي أرض اليهود. فعلى مدى السنوات التي كان اليهود بعيدين خلالها عن بلدهم [. . .] كانوا يتوقون إلى العودة إليه وإعادة الاستيطان فيه. [. . .] وهم لم ينفكّوا يقولون في قلوبهم 'إن نسيتكِ يا أورشليم، فلتنسَني يميني' (سفر المزامير، الإصحاح ١٣٧، الآية ٥). وحينما عاد الشعب اليهودي وأقيمت دولة إسرائيل، أصبحت القدس، عاصمتنا، مرةً أخرى أهمّ مركزٍ يهوديّ للشعب اليهودي".

ولذلك، تُختزل ألفا سنة من الحضارة في تسع كلمات تقع بين قوسين، بينما تُسرد قصة الشوق إلى الوطن الذي حيكت حوله الخرافات في خمسة سطورٍ في هذا النص من كتاب الجغرافيا المذكور.

تُعنى الدراسات الجغرافية، في المقام الأول، بتدريس كيفية "المعرفة ببلدنا ومحبته"، واحتضان الإنجازات الصهيونية في مجالات الزراعة (تذليل الصحراء وتطويعها، وتحويل مجاري الأنهار وتجفيف المستنقعات)، وزراعة الغابات (إعادة مجد الغابات التي ذكرها الكتاب المقدس، في ذات الوقت الذي يتمّ فيه محو آثار القرى العربية وطمسها)، ومشاريع البناء والعمران. وينقل نظام التعليم في إسرائيل فكرةً مفادها أن اليهود اغتصبوا الأرض من العرب من أجل إصلاح الضرر الذي ألحقوه [أي العرب] بها خلال فترة "غيابنا".

ولا تزال هذه الغايات، التي وَسمت النصف الأول من القرن العشرين والتي أعيدت تسمية الجغرافيا خلالها بـ "دراسات الوطن"، سائدةً في الكتب المدرسية التي تكتسب نهجًا علميًا في تدريس الجغرافيا في هذه الأيام (Bar-Gal 1993a، 2003). ويؤكّد بار-غال على أن الكتب الجديدة الحديثة ما هي إلا تمويهٌ مزركشٌ للمناهج التي عفا عليها الزمان والتي "كانت تؤكد على الأهداف القومية باعتبارها الغاية الأساسية" (Bar-Gal، 2000، p. 169).

ونحن نجد، بالتالي، مزيجًا غريبًا من الأنواع (genres)، والأساليب والرسائل، بشكليْها اللفظي والبصري، في كتب الجغرافيا التي تُدرَّس في مدارس إسرائيل. وغالبًا ما يتألف الخطاب الموظَّف في هذه الكتب من خطابٍ سياسيٍّ وتاريخيٍّ وعلميّ، تعزّزه الآيات المقتبسة من الكتاب المقدس، والأغاني الوطنية والأشعار البطولية. وفيما يتصل بالوسائل البصرية، يشتمل هذا المزيج على خرائط لا تمتّ في معظمها إلى الواقع بصلة، وعلى رسومٍ توضيحيةٍ

وصورٍ تُرسَم على أساسٍ أيديولوجيّ. وقد صُمِّمت هذه المكونات اللفظية والبصرية من أجل تخليد الهيمنة اليهودية من خلال عرضها على أنها لم تزل شرعيةً منذ أوقاتٍ موغلةٍ في القِدم. وتستنبط هذه الشرعنة سلطتها وصلاحيتها من الكتاب المقدس بصورة رئيسة، وذلك من خلال إعادة التأكيد على الوعد الإلهي بمنح أبناء إسرائيل المنطقة كلها "من النهر – نهر الفرات– إلى البحر الغربي" (سفر التثنية، الإصحاح ١١، الآية ٢٤). وكما يفترض عالم الجغرافيا يفتاحئيل (Yiftachel)، يساعد الدين نظام التعليم العلماني في إسرائيل في تشكيل روايةٍ جمعيةٍ "تُعين على تمزيق الحدود وشرعنة التدريس بشأن الأرض الإلهية" (Yiftachel، 2006: 121).

كما نجد أحد الأمثلة، التي نستطيع أن نسترشد بها في هذا المقام، في كتاب "بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط" (1994، p. 60)، وهو كتاب جغرافيا يدرَّس لطلبة الصف الخامس. ففي الفصل المعنون "بحر واحد بأسماءٍ عدة"، لا يجد القارئ بجانب خريطة "إسرائيل"، التي تشمل الأراضي الفلسطينية المحتلة وقطاع غزة (أنظر الصورة رقم (١) أدناه)، سوى عباراتٍ توراتيةٍ تستعرض مختلف الأسماء التي يسردها الكتاب المقدس للبحر الأبيض المتوسط، في ذات الوقت الذي يعيد فيه الفصل المذكور التأكيد على الوعد الإلهي. وتمثل هذه الآيات الإجابة عن السؤال الذي يستهلّ به هذا الفصل: "إن البحر الأبيض المتوسط مذكورٌ سلفًا في الكتاب المقدس. فهل يُسمى بهذا الاسم في كتاب الكتب؟". ويحمل مفتاح الخريطة المرسوم على اليابسة (بخلاف المفتاح المرسوم على البحر) مصطلحاتٍ توراتيةً للشمال والجنوب والشرق والغرب، وهو ما يعتبر تلميحًا آخر إلى أن هذا البلد كان عبرانيًا منذ زمنٍ سحيق. وتمثل هذه الأسماء، التي تشكّل عنوان الخريطة في ذات الوقت، جزءًا من الآية "وتمتد غربا و شرقا و شمالا و جنوبا" (سفر التكوين، الإصحاح ٢٨، الآية ١٤). وتظهر هذه الآية نفسُها بجانب الخريطة ضمن قائمةٍ من الاقتباسات من الكتاب المقدس والتي تحتوي كلّها على الوعد الإلهي على وجهٍ أكبر من التفصيل: سفر الخروج، الإصحاح ٢٣، الآية ٣١: "وَأَجْعَلُ تُخُومَكَ مِنْ بَحْرِ سُوفٍ (= البحر الأحمر) إِلَى بَحْرِ فِلِسْطِينَ (= السواحل الجنوبية)، وَمِنَ الْبَرِّيَّةِ إِلَى النَّهْرِ". وسفر التثنية، الإصحاح ١١، الآية ٢٤: "كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم [...]. من النهر، نهر الفرات (= سوريا + العراق)، إلى البحر الغربي يكون تخمكم".

وسفر يشوع، الإصحاح ١، الآية ٤: "من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات وإلى البحر الكبير... نحو مغرب الشمس يكون تخمكم".

ولكن لا يفسّر الفصل المذكور سوى الآية المتعلقة بـ"الامتداد" بين قوسين باللغة العبرية الحديثة "(تفسير الآية: سوف يمتد بلدكم إلى الغرب وإلى الشرق وإلى الشمال وإلى الجنوب في المستقبل)".

وأول ما تقع عين القارئ على قائمة الآيات المقتبسة من الكتاب المقدس، وذلك بالنظر إلى اتجاه قراءة اللغة العبرية (من اليمين إلى اليسار). وترتبط هذه الآيات بالخريطة عبر اتجاهات أفقية مستقيمة تدلّ على الارتباط القوي الذي قد يتأتّى عن روايةٍ أو سببٍ ونتيجة (Kress and Van-Leeuwen، 1996/2007). وبذلك، تُعرَض الخريطة التي تَرِد على الجانب 'الجديد' (الأيسر) من الصفحة باعتبارها تجسيدًا للوعود الإلهية – التجسيد الحديث للنبوءات القديمة.

الصورة رقم (١): (كتاب "بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط"، ص. ١١)، بحر واحد بأسماءٍ عدة

بإذن من دار معالوت للنشر، وزارة التربية والتعليم

وبما أنه يمكن تعريف الأنواع (genres) عن طريق وظيفتها (Van Leeuwen، 2005a)، يجوز للمرء أن يعرّف هذه الصفحة بكاملها على أنها "شرعنة" بوجهٍ عام، لأنها تشرعن احتلال الأراضي الفلسطينية بالاستناد إلى أعلى سلطةٍ لليهود – الكتاب المقدس. وتكمن الإجابة عن هذا السؤال الافتراضي "لماذا لا تظهر الخريطة الحدود المعترَف بها دوليًا؟" في "لأن الكتاب المقدس يقول ذلك".

ويضفي إدخال الآيات التوراتية ضمن النصّ العلميّ القداسة التي تَسِم الكتاب المقدس نفسه وحقيقته الإلهية على هذا النص، كما يعطي هذا الأمر الكتاب المقدس والوعود الإلهية التي يزخر بها صلاحيةً علميةً آنيّة.

توظيف الخطاب العنصري

تمثيل الفلسطينيين

يشير مورغان (J. Morgan)، وهو خبير في علم الجغرافيا الاجتماعية والثقافية، في كتابه الصادر في العام ٢٠٠٣، إلى أنه طالما كانت "الصور تشكل أسلوبًا من أساليب الإقناع التي تدفع المرء إلى التمسك بمعتقداتٍ وقيمٍ معينة"، فالأسئلة المحوريّة التي تثور في علم الجغرافيا تتمثل في "من يستهلكها؟ وما الذي يصنعونه منها؟" (Morgan، 2003، p. 254–255). وترتبط هذه الأسئلة بتلك الأسئلة التي يطرحها فان ليوين (Van Leeuwen) حول صور التمثيل البصري (2000، p. 92):

ما هي أنواع الأشخاص والأشياء المصوَّرة في الصور وكيف نعرفها بأنها كذلك؟

ما هي الأفكار والقيم التي نربطها بالأشخاص أو الأماكن أو الأشياء المصورة، وما الذي يسمح لنا بفعل ذلك؟

تعتبر هذه الأسئلة، التي يجوز طرحها حول أية علامة بصرية، مهمةً في التدريس لأن "جزءًا معتبرًا من الرسالة التي يؤدّيها النص المتعدّد الوسائط يظهر قبل قراءة أية كلمةٍ من كلمات ذلك النص" (Van Leeuwen، 2001، p. 92). وكما يفسّر ليمكي (Lemke، 1998، p. 283) ذلك، فإن "المعاني ليست ثابتةً ومضافةً (أي أن معنى الكلمة يُعدَّل من خلال سياق الصورة، ومعنى الصورة يعدَّل من خلال السياق النصي)، مما يجعل الكلّ أكبر بكثيرٍ من مجموع أجزائه. وكما سنرى في كتب الجغرافيا المتداولة في المدارس الإسرائيلية، يعتبر إقصاء الفلسطينيين وتصويرهم كعناصر لاشخصانية، وباعتبارهم "مشكلاتٍ" و"تهديداتٍ"، جليًا قبل قراءة الكلمات التي يسردها النص المكتوب.

اليهود مقابل غير اليهود

يتعامل الخطاب العنصري في جميع الأحوال مع الثنائيات (Wodak and Reisigl 2001). وتقسَّم أشكال الخطاب السياسي والاجتماعي والتعليمي الإسرائيلي – سواء أكان لفظيًا أم بصريًا– السكان الإسرائيليين إلى يهود وغير يهود. فعلى سبيل المثال، نجد في صفحة (٥٥) من كتاب "المستوطنات في المكان" خريطةً تحت عنوان: "السكن في الريف في إسرائيل: أزرق: قرى يهودية، أحمر: قرى غير يهودية". ومن الناحية اللفظية، يساعد تعريف الناس على أنهم كيانٌ غير موجود (بمعنى أنهم "غير يهود") في نزع الشخصنة عنهم وعزلهم وإقصائهم. فكما يقول فان ديجك (Van Dijk)، تمهّد اللاشخصنة الطريق نحو "الهيمنة على جماعات الأقلية وإقصائها من النشاطات الاجتماعية، بل وتدميرها وقتلها" (وقد ورد هذا الاقتباس في Reisigl and Wodak، 2001: 28). ويسمّى غير اليهود، بصرف النظر عن أصولهم ومعتقداتهم، في بعض الأحيان بالاسم العام الفضفاض 'العرب'.[٧] وهذا مثالٌ على ما يصطلح فان ليوين (Van Leeuwen، 1996، p. 46) على تسميته: التعميم (genericisation) – والذي يتحقّق في العادة من خلال إطلاق "اسمٍ عامٍّ بصيغة الجمع من دون إيراد أداة التعريف".

ومن الأمثلة على ذلك:

الصفحة ١٢ من كتاب "إسرائيل: الإنسان والمكان": "السكان العرب: هناك عدة جماعاتٍ دينيةٍ وعدة جماعات إثنية ضمن هذه الجماعة: المسلمون، والمسيحيون، والدروز، والبدو والشراكسة. ولكن بما أن غالبيتهم عرب، فسوف تجري الإشارة إليهم بمسمّى عرب". (وأنا أبرز التأكيد هنا بالخط العريض).

والمعلومات الوحيدة التي يجدها القارئ حول هؤلاء 'العرب' هي معلوماتٌ سلبية. فجميع الكتب تقدّم المواطنين الفلسطينيين أو العرب المقيمين في إسرائيل على أنهم عبارة عن 'وسَطٍ' متخلّف، وهي تقصيهم من جميع الروايات التي تتناول الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية فيها. ففي كتاب "الناس في المكان" (ص. ٧٦)، يستطيع رسمٌ توضيحيٌّ أن يصوّر متوسط عمر الزواج بين النساء على أنه إحدى الخصائص المرتبطة بالتنمية، كما يضع إسرائيل في آخر خانةٍ في سلسلةٍ من "البلدان المتقدمة" بفضل الحاشية التالية التي تظهر بخطٍّ صغيرٍ: "تشير البيانات الإسرائيلية إلى السكان اليهود دون غيرهم". وتتعامل الكتب الأخرى، ككتاب "جغرافيا أرض إسرائيل" (٢٠٠٣)، مع 'عرب إسرائيل' على أنهم دخلاء يجب ثنْيُهم عن "غزو أراضي الدولة" في الجليل،[٨] لأنهم يهدّدون

"بخلق سلالةٍ غير يهوديةٍ قد تتسبّب في فصل هذه المناطق عن دولة إسرائيل" ("جغرافيا أرض إسرائيل"، ص. ٢٤٠).

رسم خرائط الإقصاء

"لم تَعُد الأرض تسبق الخريطة، بل لا تقوم لها قائمة بدونها. فالخريطة هي التي تسبق الأرض [. . .] وهي التي تلد الأرض" (Baudrillard، 1983: 2).

تستطيع الخرائط تطبيع (naturalize) الإقصاء أكثر من أية أداةٍ أخرى. فكما يفترض هنريكسون (Henrikson)، "نحن نرى ونعرف، بل ونخلق العالم الواسع، من خلال عدسة الخريطة" (Henrikson، p. 52). ويفترض هنريكسون كذلك بأن "رسم الخرائط، شأنه شأن السياسة، يشكّل 'خطابًا غائيًا' يجسّد القوة، ويعزز الوضع القائم، ويجمّد التفاعل الاجتماعي ضمن الخطوط المرسومة". ولذلك، "كانت الخريطة تعبّر في جميع الأحوال عن التمثيل المتقَن للدولة" (Henrikson، pp. 58-59، 60).

ويبيّن بار- غال (Bar-Gal) أن القائمين على إعداد المناهج التعليمية في إسرائيل لم يقبلوا على الإطلاق الحدود التي صنعها البشر، والتي تبدو لهم بمثابة "تسلسلٍ عارضٍ نجم عن الأوامر بوقف إطلاق النار التي شلّت الزخم العسكري" (Bar-Gal، 1993a، p. 125)، وهم لم يتوقّفوا عن تدريس أرض إسرائيل الكبرى "الموعودة" للطلاب، والتي تقدّمها الكتب المدرسية على أنها "وحدةٌ جغرافيةٌ كاملة" (Bar-Gal 1993a). وتُعرَض هذه 'الوحدة الجغرافية' في 'خرائط مادية' تزيّن الممرات الداخلية في المدارس والوزارات والبنوك. وتضم تلك الخرائط إسرائيل وأجزاء من لبنان وفلسطين ومعظم أراضي الأردن (التي تسمّيها الخرائط الأرض الشرقية لإسرائيل)، بالإضافة إلى أجزاء من سورية ومصر. وتبث الخرائط المذكورة فكرة الحدود "الطبيعية" لشعب دولة إسرائيل الذي جرى إنشاؤه حديثًا. وبذلك، لا تعرض الخرائط الإسرائيلية "'دولة إسرائيل' التي نالت الشرعنة الدولية [وإنما] 'أرض إسرائيل' التي تحظى بالشرعنة الإلهية" (Bar-Gal 1993b، p. 430). ووفقًا لما يؤكّده بار-غال في كتابه الصادر في العام ١٩٩٦ (ص. ٦٩):

"لا يزال النظام التعليمي يقدّم الخريطة باعتبارها نموذجًا مصغَّرًا للواقع. ويؤكد هذا النظام في حالاتٍ قليلةٍ على أن الخريطة تشكل نموذجًا مشوَّهًا، يمكن أن "يكذب" في بعض الحالات، وأن يحتوي على عناصر تختلف اختلافًا كليًا عن الواقع".

ولا يحمل أي كتابٍ من الكتب التي أشرنا إليها عنوان جغرافيا دولة إسرائيل. بل تتضمّن العناوين في العادة كلمة إسرائيل أو أرض إسرائيل، بحيث تشتمل في جميع الخرائط الواردة فيها على ضمّ الأقاليم التي تقع خارج الحدود الرسمية لإسرائيل، بما فيها المناطق المحتلة التي استولت عليها إسرائيل خلال الحروب، والتي لا يجعلها وضعها القانوني جزءًا من دولة إسرائيل. ومن بين كتب الجغرافيا التي نستعرضها في هذه المقالة، لا يصرّح سوى كتاب "إسرائيل: الإنسان في المكان" من أول صفحةٍ فيه أنه يتناول دولة إسرائيل. ولكن تتضمّن الخرائط التي يوردها هذا الكتاب الأراضي الفلسطينية التي تقع خارج الحدود الرسمية لإسرائيل باعتبارها جزءًا لا يتجزأ من أراضي الدولة. ومع ذلك، فلا تظهر هذه الخرائط أية مدينةٍ عربيةٍ داخل إسرائيل (كالناصرة، أو عكا أو أم الفحم). فعلى الخريطة الأولى: "إسرائيل وجيرانها ٢٠٠٢" (ص. ٧ - أنظر الصورة رقم (٢) أدناه)، يحيط خطٌّ متقطعٌ رفيعٌ جدًا بالمناطق التي تسيطر عليها السلطات الفلسطينية (المناطق "أ")، وهو ما يشير في العادة إلى الصفة المؤقتة لوجود هذه المناطق.

الصورة رقم (٢): (كتاب "إسرائيل: الإنسان في المكان"، ص. ٧): إسرائيل وجيرانها، ٢٠٠٠
بإذنٍ من مركز تكنولوجيا التعليم، تل أبيب

وعلاوةً على ما تقدم، تشير الخرائط إلى المناطق الفلسطينية الأخرى (مناطق "ب" و"ج")، التي تخضع للاحتلال العسكري والتي لم تُضَمّ إلى إسرائيل على الإطلاق، على أنها جزءٌ من أراضي الدولة. وعلى نحوٍ مماثل، تظهر خريطةٌ أخرى في صفحة (٢٣) من الكتاب المذكور الجامعات اليهودية التي أُقيمت في مستوطنات "أريئيل" و"ألون شفوت" و"إلكناه" غير القانونية. وفي الوقت الذي تبرز فيه هذه الخريطة حتى أصغر الملاحق التابعة لتلك الجامعات اليهودية، فهي تستبعد كبريات الجامعات الفلسطينية الواقعة في ذاتها هذه المنطقة، كجامعة بير زيت وجامعة القدس وجامعة بيت لحم، وذلك على الرغم من أن هذه الجامعات الفلسطينية أكبر من نظيراتها الإسرائيلية ومعروفةٌ أكثر منها في جميع أنحاء العالم. وتظهر خريطتان أخريان الأراضي الفلسطينية بحسب ما يصطلح هنريكسون على تسميته 'المواقع الجغرافية أو أسمائها المغيَّبة'، بمعنى إظهارها كبقعٍ دون لونٍ داخل دولة إسرائيل. ويتم 'تغييب المواقع الجغرافية وأسمائها' (toponomyc silences) في العادة من خلال:

> "حذف أسماء الأماكن أو تغييرها – إعادة تسمية المواقع التي يملكها الشعب الواقع تحت الاحتلال أو جماعات الأقلية – [بحيث يفضي ذلك] إلى "تغييب المواقع الجغرافية وأسمائها"، ولا سيما عن طريق إبراز الأمكنة الخالية، وتغييب السمات الموحّدة والمعايير المشتركة أو الإقصاء المتعمد والتجاهل المقصود أو حتى الاضطهاد الفعلي" (Henrikson، 1994، p. 59)

كما نجد على الخريطة التي تبيّن توزيع "السكان العرب في إسرائيل، ٢٠٠٢" (في كتاب "إسرائيل: الإنسان في المكان"، ص. ١٦) المناطق الفلسطينية من دون لونٍ وتعرَّف على أنها "مناطق لا تتوفر بيانات بشأنها"، بمعنى أنها مناطق تقع داخل إسرائيل ولا يوجد 'سكان' فيها (أنظر الصورة رقم (٣) أدناه).

وتتضمّن الخريطة التي تبيّن توزيع العمالة (في كتاب "إسرائيل: الإنسان في المكان"، ص. ٣٣) رسمًا توضيحيًا يظهر الإسرائيليين الذين يعملون في الأراضي الفلسطينية المحتلة. ولا تعرض هذه الخريطة بياناتٍ حول العمال الفلسطينيين في ذات الوقت. ويشار إلى هؤلاء العمال في النص اللفظي باعتبارهم "أجانب" أو "عمال ضيوف":

> "يشكل العمال الفلسطينيون الذين يأتون من المناطق التي تسيطر عليها السلطة الفلسطينية جزءًا من العمال الأجانب. وهم يعملون في وظائف غير مهنية، وتقلّ أجورهم عن المواطنين الإسرائيليين الذين يعملون في ذات الوظائف... وهو ما يعتبر سمةً من سمات البلدان النامية بمجموعها" (كتاب "إسرائيل: الإنسان في المكان"، ص. ٣٢).

ولا تورد كتب الجغرافيا المتداولة في المدارس الإسرائيلية أية معلوماتٍ أخرى عن نوع العمل الذي يقوم به الفلسطينيون، باستثناء عملهم في "وظائف غير مهنية". ويشير التعامل مع الفلسطينيين باعتبارهم أجانب إلى مفهومٍ جغرافيٍّ متناقض: حيث تقدَّم الأراضي الفلسطينية – باستثناء المنطقة "أ" منها – على أنها جزءٌ من إسرائيل. ومع ذلك، يعتبر سكان هذه الأراضي أجانب. وقد يغيب هذا التناقض عن ذهن القارئ لأن الكتب المذكورة لا تشير إلى أن هذه الأراضي المحتلة هي مناطق فلسطينية.

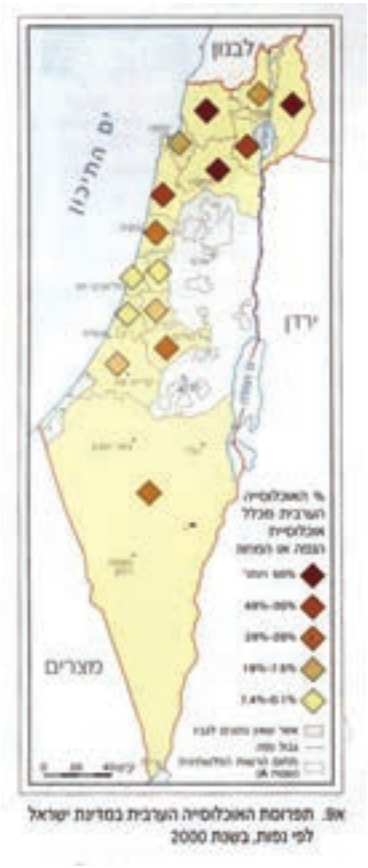

الصورة رقم (٣): (كتاب "إسرائيل: الإنسان في المكان"، ص. ١٦): السكان العرب في إسرائيل، ٢٠٠٠.

بإذنٍ من مركز تكنولوجيا التعليم، تل أبيب

وكما يشرح هنريكسون (Henrikson):

"تتميّز الخرائط بالقوة والإقناع، بصورةٍ صريحةٍ أحيانًا وبصورةٍ ضمنيةٍ في جميع الأحوال تقريبًا. فكلّ خريطة هي بمثابة الوسيلة التي يدفعك شخصٌ ما من خلالها إلى النظر إلى العالم بالطريقة التي يراها. وهو يفعل ذلك من خلال الإشارة إلى أنه ليس له مصلحة في ذلك. فالخرائط مقنعةٌ لأن المصالح التي تخدمها مخفيّة".

(Henrikson 1994, p. 58-59)

ويمثل 'تغييب المواقع الجغرافية وأسمائها' في سياق استعراض المناطق الفلسطينية التعبير البصري عن الشعار الصهيوني "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، الذي يبرّر سياسة الاحتلال والاستعمار على الدوام. ويظهر هذا الأمر بجلاءٍ في خريطة القدس، "العاصمة التاريخية للشعب اليهودي"، (في كتاب "إسرائيل: الإنسان في المكان"، ص. ١٧٤-١٧٥). فهذه الخريطة، التي ترد تحت عنوان "القدس العاصمة - الحكومة والثقافة والإدارة والمواقع الوطنية"، لا تظهِر أي مواقعَ ثقافيةٍ أو مبان إداريةٍ فلسطينيةٍ في الشطر الشرقي من مدينة القدس، الذي يقطن المواطنون الفلسطينيون في المساحة العظمى منه. وتتكفّل هذه الخريطة بإقناع الناظر إليها بأن القدس الشرقية ما هي إلا مكانٌ خالٍ، وهي لا تظهِر سوى "جبل الهيكل" و"حائط المبكى" باعتبارها "مواقع وطنية" فيها.

الممارسات السيئة في الجغرافيا

يعتبر كتاب "جغرافيا أرض إسرائيل" أكثر كتب الجغرافيا سُفورًا في خطابه، وذلك من ناحية أنماط التمثيل اللفظي والبصري التي يوظّفها. فكما يبدو بلا مواربة في الخريطة المعنونة "إسرائيل بعد اتفاقيات أوسلو" (أنظر الصورة رقم (٤) أدناه)، تُقدَّم القوانين والقرارات الدولية على أنها غير قابلةٍ للتطبيق في هذا الكتاب المدرسي. ففي جميع أنحاء الضفة الغربية، يشاهد المرء أشكالاً مستطيلةً بيضاء مكتوبٌ عليه أن "يهودا والسامرة" (وهو الاسم العبري للضفة الغربية) هي "في طور عمليةٍ من التغيرات الديناميكية" (المستطيل الذي يرد على يمين الصفحة)، ولكن "سوف يبقى قطاع غزة تحت السيطرة الإسرائيلية" (المستطيل على يسار الصفحة). أما المستطيل الذي يقع في الجهة اليمنى أسفل الصفحة فيشير إلى أن: "هذه المناطق التي نُقلت إلى السلطة الفلسطينية لم تكن محددةً على الخرائط الواردة في هذا الكتاب لأنها لم تكتسب وضع الحدود الدولية بعد". ومع ذلك، يشار إلى المستعمرات اليهودية المقامة في الضفة الغربية ومرتفعات الجولان، والتي لم يحظ ضمّها بوضعٍ دوليٍّ كذلك، باعتبارها جزءًا من الدولة، ويطمئِن الجنديان اللّذان يُطلان من إطار الخريطة ويوجّهان بندقيتيهما نحو سورية ولبنان القارئ بأن إسرائيل لم توافق على الحدود الإجبارية، ولن تلتزم بها. وهذا النوع من الخرائط هو ما يعرّفه أكسفورد ودورلينغ وهاريس في كتابهم الصادر في العام ٢٠٠٣ (Oxford، Dorling، and Harris، 2003) "الممارسات السيئة في رسم الخرائط" ("cartographic bad practice"):

"من الممارسات الرديئة أن يتم حشو الخريطة بمعلوماتٍ لا داعي لها أو إضافة العناصر البصرية غير الضرورية إلى الرسوم التوضيحية، وخصوصًا التزيين الذي يصرف الانتباه عن المعلومات المهمة" (٢٠٠٣: ١٥٤).

ويجب أن تشير "المعلومات المهمة" في هذه الحالة، وبحسب ما يوحي به العنوان، إلى الحدود المتّفق عليها دوليًا وإلى المناطق التي استعادتها السلطة الفلسطينية في أعقاب اتفاقيات أوسلو.

وفيما عدا هذا العنوان - الذي يعتبر مضلِّلاً أيضًا - لا يندرج أيٌّ من العناصر المذكورة أعلاه في متن الخريطة. وفضلاً عن ذلك، لا تأتي الخريطة على ذكر المصدر الذي اقتبست البيانات الواردة فيها عنه. ومن الواضح كذلك أنها تحتوي على عناصر غير ضرورية من النادر أن يجدها القارئ في أي أطلسٍ أو مجلّد خرائط آخر. والنتيجة الحتمية التي يخرج بها القارئ هي أن هذه الخريطة لا تسعى إلى تدريس الطلبة رسم الخرائط أو الحدود الدولية، وإنما نقل رسالةٍ واضحةٍ بشأن عدم سريان القرارات الدولية ونفاذها في إسرائيل. ووفقًا لما يوضّحه بار- غال:

"تمثل حدود إسرائيل على الوجه الذي تبيّنه هذه الخريطة المفهوم الأيديولوجي الذي يحمله تيار اليمين، والذي يرفض رؤية منطقة الضفة الغربية وغزة باعتبارهما إقليمًا يخضع لسيادة مغايرة".

• (Bar-Gal 1993a: 125)

الصورة رقم (٤): (كتاب "جغرافيا أرض إسرائيل"، ص. ١٧)، إسرائيل بعد اتفاقيات أوسلو
بإذنٍ من دار ليلاخ للنشر، تل أبيب

ويسرد أكسفورد ودورلينغ وهاريس (Oxford، Dorling and Harris، 2003: 154) العناصر الرئيسة التي يجب إدراجها في الخريطة:

"العنوان الذي يبيّن الموضوع الرئيس الذي يجري رسمه والمنطقة والبيانات. ومفتاح الخريطة الذي يتضمن شرحًا وافيًا لما يمثله كل رمز من رموز الخريطة، بحيث يرد النص إلى يمين كل رمز. ومصدر البيانات، بمعنى المصدر الذي اقتُبست البيانات عنه، والتاريخ الذي تمّ فيه الحصول على هذه البيانات والجهة التي حصلت عليها. والمسميات التي تشير إلى الملامح التي تكتسب اهتمامًا خاصًا".

الخرائط الذهنية – المركز وما يحيط به

"تعتبر الخرائط الذهنية عاملاً متغيرًا حيويًا – وهي تشكّل العامل الحاسم في بعض الحالات – في إعداد السياسات العامة" (Henrikson 1994، p. 50).

تمثل 'الخرائط الذهنية' تراكيب أيديولوجية قد لا ترتبط بالأدلة الجغرافية. وتعكس هذه الخرائط المفهوم الذي يحمله الفرد أو المجتمع حول العالم أو التفكير بشأنه. فعلى سبيل المثال، تأتي أوروبا في موقع مركز العالم في الخرائط الأوروبية. كما يتأثر رسم الخرائط تأثّرًا كبيرًا بالخرائط الذهنية أو بالأيديولوجيات السياسية التي تبدي الدولة الاهتمام بنشرها وإذاعتها. ولذلك، فعلى الرغم من الإطار الصغير الذي تقوم فيه إسرائيل، تستطيع الخرائط أن تدفع الفلسطينيين خارج هوامش الوعي والواقع الاجتماعي، وهو ما يتمّ التعبير عنه بصراحةٍ في الرواية التالية التي يسردها كتاب "جغرافيا أرض إسرائيل" (٢٠٠٣: ١٩٧):

"العوامل التي تحول دون تنمية القرى العربية: [...] القرى العربية بعيدةٌ عن المركز، والطرق التي توصل إليها وعرة. وقد بقيت خارج إطار عملية التغيير والتنمية، وسكانها بالكاد يعرفون الحياة الحديثة، وهناك صعوباتٌ في ربطها بشبكات الكهرباء والمياه".

ولا يظهر أيٌّ من هذه القرى "النائية" في أية خريطةٍ على الرغم من أنها تقع كلّها ضمن 'المنطقة الوسطى الضيّقة في إسرائيل'، والتي يصل عرضها في الجزء الأوسع منها إلى ٥٠ كيلومترًا (تستغرق ٣٠ دقيقةً لاجتيازها في السيارة)، وتساوي مساحتها في الجزء الأضيق منها المسافة القائمة بين مانهاتن ومطار جون كنيدي الدولي – وهي مساحةٌ تبلغ ١٥ كيلومترًا، أو تسع دقائق في السيارة – وفق ما تؤكد عليه الخرائط الإسرائيلية التي تصدرها وزارة الخارجية[٩] (أنظر الصورة رقم (٥) أدناه).

ومع ذلك، تقدّم جميع الكتب المدرسية البؤر الاستيطانية اليهودية (التي تُعرَف بالميتزبيم (Mitzpim) في العبرية)[١٠] المشيّدة على قمم الجبال التي تشرف على هذه القرى "النائية" أو غير الموجودة، والمستعمرات اليهودية التي تقع خارج الحدود الرسمية لإسرائيل، على أنها أمثلةٌ على مستوى المعيشة المتقدم، وليس باعتبارها مستوطناتٍ نائيةٍ أو هامشيةٍ أو محرومة.

الصورة رقم (٥): المنطقة الوسطى الضيقة في إسرائيل
المصدر: وزارة الخارجية الإسرائيلية، قصة إسرائيل في خرائط: التهديدات والتضاريس

وفي المقابل، تعمل الكتب المدرسية المتداولة في إسرائيل على تهميش العرب، حيث تُقصيهم من الخطاب الثقافي والحياة الاجتماعية في إسرائيل (أنظر يفتاحئيل (Yiftachel، 2006) ويونا (Yona، 2005))، والتي يجري المحافظة على "طابعها الغربي" أو "صبغتها الأوروبية المركزية". فقد رأينا، مثلاً، في أحد كتب التاريخ الذي يدرَّس لطلبة الصفين الثامن والتاسع وتحت عنوان "من المحافظة إلى التقدم" (ص. ٢٦٩) أن "آلاف الأشخاص وصلوا إلى ميناء يافا في الفترة الواقعة بين عاميْ ١٨٨١ و١٨٨٢ من روسيا، ومن رومانيا، ومن البلقان، بل ومن مناطق بعيدةٍ أخرى كاليمن. وغنيّ عن القول إن اليمن أقرب إلى ميناء يافا من روسيا"، ولكن المركز القائم في "الخريطة الذهنية" التي يحملها مؤلفو ذلك الكتاب والعديد من اللجان والمستشارين الذين صادقوا على تدريسه لا يزال يتمثل في أوروبا الشرقية، وهي المركز الروحي للصهيونية ومهد الفئة الاجتماعية المهيمنة في إسرائيل. ووفقًا لما جاء على لسان هنريكسون (Henrikson، 1994: 55-56):

"من بين التبعات المؤسفة التي ترتبت على الكولونيالية والظرف الذي ولدته [...] الشعور بأن المركز يقع في مكانٍ آخر".

وفيما يتعلق بتأثير الخرائط الذهنية، يفترض بار- غال (Bar-Gal) بأن:

"المواطنين الإسرائيليين من أبناء هذا الجيل اكتسبوا معتقداتهم السياسية وحدّدوها في الماضي، حيث بنى كل واحد منهم 'خريطته الذهنية' بناءً عليها. وسوف تؤثّر هذه الخرائط على قراراتهم في صناديق الاقتراع حينما يُدلون بأصواتهم بشأن مسألة الحدود المستقبلية للدولة".
(Bar-Gal, 1993b, p. 421)

تحويل المركز

تكتسب الخرائط طابعًا عامًا إجماليًا (بمعنى أنها تظهِر ما يحصل في منطقةٍ ما) وتأثيرًا منوِّمًا - أي تأثيرًا إيحائيًا. ويعبِّر 'التنويم المغناطيسي الذي تمارسه الخرائط على الناظر إليها' (Cart-hypnosis) (وهو مصطلحٌ أطلقه بوغز (Boggs، 1947)) عن الإقناع الخفيّ الذي تمارسه الخرائط التي "تدفع الناس إلى التسليم بالأفكار التي توحيها لهم دونما وعيٍ ودون توجيه الانتقاد إليها" (Henrikson، 1994: 50). ويفترض كريس وفان ليوين بأن "المركز لا يتطابق دائمًا مع نطاق تركيز الخريطة [...]. فتقديم شيءٍ ما على أنه المركز يعني تقديمه باعتباره نواة المعلومات التي تدور في مدارها جميع العناصر الأخرى" (Van Leeuwen and Kress، 1996: 30، 90). ويمكن تحويل الانتباه عن البؤرة غير المركزية عن طريق استخدام اللون والحجم والمنظور.

ويظهر سطران يوجّهان انتباه القارئ مباشرةً فوق خريطة بعنوان "وسِّع مداركك: اليهود والمسيحيون والمسلمون حول البحر الأبيض المتوسط" (أنظر الصورة رقم (٦) أدناه) في صفحة ٥٣ من كتاب "بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط": "تقطن الكثير من الشعوب حول البحر الأبيض المتوسط: اليهود والعرب والطليان واليونانيون والأسبان وآخرون." و"الآخرون" هم التونسيون والمغاربة والجزائريون والأتراك، وهم يقعون بمجموعهم ضمن

نطاق الاسم العام 'العرب' الذين تمثّلهم كتلتان ضخمتان تضمّان 'بلدانًا إسلامية' تظهران باللون الزهري الغامق وتحيطان بإسرائيل 'اليهودية'. كما تظهر في الخريطة كتلةٌ لا يظهر عليها اسمٌ باللون الزهري الفاتح، وهي تشير إلى 'الدول المسيحية'. ويجعل اللون "اليهودي" المركَّز المخصّص لإسرائيل الصغيرة – وهو الأرجواني الغامق – والذي يقترن مع نزع الأسماء عن الكتلتين الأخريين إسرائيل تظهر كأبرز معلَم في الخريطة وتشكّل بؤرتها، بحيث تكون بذلك هي العنصر الأول الذي يجذب العين نحوها. ويفترض أرنهايم (Arnheim) (الذي يستشهد به هنريكسون في كتابه (Henrikson، 1994: ٥٨)) بأن دراسة الخرائط قد تدفع الناظر إليها إلى الشعور "بالقوى المكانية الضمنية التي تملكها بنية الخريطة باعتبارها 'قوى جاذبةً وطاردة' في نظامه العصبي"، وذلك لأن الشكل واللون المستخدَميْن في الخريطة يملكان تأثيرًا محرِّكًا. وأول شيءٍ تصادفه العين في قراءة الخرائط هو الخصائص التعبيرية التي تَسِم الخريطة، والتي تبرزها البيانات المحفِّزة، كاللون مثلاً. ويشير مونمونير (Monmonier، 1996) في كتابه "كيف تكذب باستخدام الخرائط" (How to Lie with Maps) إلى أن "اللون يرمز إلى المأزق في رسم الخرائط" (ص. ١٦٣)، وأن "[. . .] المقاربة الآنية تجعل اللون الفاتح يبدو أفتح واللون الغامق يبدو أغمق". (ص. ١٧٢).

الصورة رقم (٦): (كتاب "بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط"، ص. ٥٣): اليهود والمسيحيون والمسلمون حول البحر الأبيض المتوسط

بإذنٍ من دار معالوت للنشر، وزارة التربية والتعليم، القدس

ويشير مفتاح الخريطة التي يعرضها كتاب "بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط" إلى أن الألوان تصوّر 'الأغلبية' في كل كتلة، كما يورد النص المحرَّر أسفل هذه الخريطة: "تظهر في هذه الخريطة بقعةٌ من اللون البارز الذي يمثل اليهود الذين يعيشون في دولتنا – دولة إسرائيل – على الجانب الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط". وفي المنطقة التي تُسمى إسرائيل، التي تغطي جميع الأراضي الفلسطينية المحتلة، بما فيها قطاع غزة، يصل عدد جميع السكان إلى ما يقرب من ٥ر٥ مليون يهودي و٥ر٥ مليون فلسطيني، لم يجر حساب تعدادهم. ولا يظهر في الكتل التي تضم الدول الإسلامية أي يهودٍ أو مسيحيين، ولا يتواجد يهود في كتلة البلدان المسيحية كذلك. وفي المقابل، تظهِر الخريطة ثلث مساحة قبرص على أنه كتلة مسلمة. وتحتوي منطقة البلقان على جيوبٍ غير متساويةٍ ومتفاوتة الحجم من 'المسلمين'، وهي مناطق لا يورد مفتاح الخريطة ذكرًا لها. ومع أن هذه الجيوب وثلث مساحة قبرص لا تمثلان الأغلبية، فهما تعزّزان الأثر الذي يفرزه تدخّل المسلمين. ويشير فان ليوين (Van Leeuwen، 1992: 51) إلى أنه طالما كانت الخرائط تكتسب طابعًا تحليليًا، فإن العلاقات التي تظهرها ليست ديناميكية، وإنما ثابتة. وفضلاً عن ذلك، تبرِز هذه الخريطة علاقات القوة أو التهديدات الثابتة في الشرق الأوسط من خلال اللون.[١١]

ونحن نجد، مرةً أخرى، أن بعض العناصر التي يجب إدراجها ضمن الخريطة مفقودة. وفي المقابل، تحتوي الخريطة على عناصر إضافية لا يتطرق مفتاحها إلى ذكرها.

وعلى وجه العموم، "تتمّ تجلية الإقناع وإخفاء التلقين والتعريض" (Kress and Van Leeuwen، 1996: 90) في جميع الخرائط التي يستعرضها هذا الفصل.

الصور الفوتوغرافية ذات الطابع الأيديولوجي

يفترض فان ليوين (Van Leeuwen، 2001) بأن الصور الفوتوغرافية، حتى الوثائقية منها، قد تحمل معنىً رمزيًا. كما يمكن تحليل هذه الصور ليس من الناحية السيميائية فحسب، وإنما من ناحية صنع الأيقونات وتحليلها وتفسيرها كذلك. ويسعى مثل هذا التحليل إلى الوقوف على ما تمثّله الصورة ضمن السياق المحدّد للثقافة أو الوضع القائم، وربطها مع "الموضوعات أو المفاهيم أو المعنى التقليدي" (Woodrow، 1999)، من أجل تفسير السبب ('لماذا') الذي يقف وراء صور التمثيل الخاضعة للتحليل (Van Leeuwen، 2001، p. 116). فكما يرى

بانوفسكي (Panofsky، 1974: 30) وقد يجلّي التحليل "المواقف الأساسية التي تتبنّاها الأمة أو التي تسود في فترةٍ أو طبقةٍ معينةٍ أو في أسلوب الإقناع الديني والفلسفي – [. . .] والتي تُختزَل في عملٍ واحد". (ويستشهد به وودرو في كتابه Woodrow، 1999: 1).

لا يتم إظهار المواطنين الفلسطينيين في إسرائيل كأشخاصٍ معاصرين ومنتِجين، وإنما كقوالبَ نمطيةٍ يوصفون، وفق ما يصطلح بارثز (Barthes، 1977، p. 24) على تسميته 'علاماتٍ' تدلّ على نوعهم الأصلي: فهم عبارة عن 'عرب' نمطيين ومزارعين بدائيين يَبدون للعيان من مسافةٍ بعيدة ومن دون إشارةٍ إلى الزمان، وهو ما يضفي عليهم سمة 'السرمدية' ويجعل منهم أيقونات. وتظهِر صور التمثيل الوحيدة للفلسطينيين القاطنين في الأراضي المحتلة، وذلك في الحالات النادرة التي يجري تصويرهم فيها، كإرهابيين أو 'لاجئين' وجوهُهم مغطاةٌ، ويظهرون من مسافةٍ بعيدة ويقيمون في أماكن لا أسماء لها. ولذلك، يتم تصوير الفلسطينيين "كأشخاصٍ لا تؤثر حياتهم، ولن تؤثر، على حياتنا" (Van Leeuwen 1992، p. 45) باستثناء أنهم يشكّلون ظاهرةً، أو حتى 'مشاكل' وتهديدات. وهم يمثلون التخلف ('الآسيوي') والإرهاب ومشكلة اللاجئين التي تلطّخ صورة إسرائيل في عيون العالم (Bar Navi، 1999).

ونجد أحد الأمثلة ذات الصلة في كتاب "الناس في المكان" (ص. ١٥٠) في الفصل المعنون: "دراسة الحالة رقم (٤): الكثير من اللاجئين في العالم يسعون إلى النجاة بحياتهم". وتقوم بنية هذا الفصل على أساسٍ تحليليّ: فهو يظهِر العديد من الأنواع الفرعية لمن يصنَّفون على أنهم "لاجئون". وتبيّن إحدى الخرائط مناطق تجمّع اللاجئين في العام ١٩٩٢، حيث يقطن مليون لاجئ منهم في منطقة إسرائيل بحسب ما جاء في هذا الفصل. ويتضمن الفصل سبع صورٍ، ثلاثٌ منها مأخوذة عن قُربٍ للاجئين يهود بين عاميْ ١٩٤٥ و١٩٥٦، وصورةٌ واحدةٌ مقرَّبةٌ لأطباء من الجيش يعالجون رضيعًا رواندِيًا، وصورةٌ جويةٌ مأخوذةٌ عن بُعدٍ للاجئين الروانديين، وصورةٌ جويةٌ أخرى مأخوذةٌ عن بُعدٍ للاجئين صوماليين، وصورةٌ مأخوذةٌ عن بُعدٍ لمواطنين من هاييتي، وصورةٌ ملتقطةٌ من مسافةٍ بعيدةٍ جدًا لبلدة صفيحٍ خاليةٍ تُعرّف على أنها "مخيم جباليا للاجئين في منطقة غزة".[١٢] (أنظر الصورة رقم (٧) أدناه).

ويصوَّر جميع اللاجئين، باستثناء اللاجئين الفلسطينيين، كأناسٍ "يسعون إلى النجاة بحياتهم"، وذلك في ذات الوقت الذي يظهرون فيه، باستثناء اللاجئين اليهود، من مسافةٍ بعيدةٍ باعتبارهم "ظاهرةً"، وليس أفرادا. ومع ذلك، يورد النصّ المشاكل التي يعاني منها هؤلاء اللاجئون على وجه التفصيل، كما تظهر المسارات التي يسلكونها على الخرائط التي تتضمن الحقائق الضرورية: حجم البلد، وتركيبة السكان، وغير ذلك. واللاجئون الوحيدون الذي لا يظهرون على نحوٍ "يسعون فيه إلى النجاة بحياتهم" هم المليون لاجئ في منطقة إسرائيل، والذين لا يبيّن النص ولا أية خريطةٍ التقلّبات أو الصعوبات التي يواجهونها.[١٣] ولا يزيد تمثيل هؤلاء اللاجئين عن عرضهم في صورةٍ فوتوغرافيةٍ جويةٍ لمخيم جباليا.

والتعليق الذي يشرح الصورة الجوية لمخيم جباليا هو على النحو التالي:

> أحد أكبر مخيمات اللاجئين، التي تشهد الاكتظاظ ويعيش سكانها في فقر مدقع (ص. ١٥٣)

وهذا هو العنوان الوحيد الذي لا يحدّد هوية سكان هذا المخيم ولا يفسر كيفية تحوّلهم إلى لاجئين. ويصوّر هذا التعليق الفقر والاكتظاظ في المخيم من وجهة نظرٍ وجودية (existentializ- tion) – أي باعتبار أن الحالة القائمة أو حتى الظروف التي لا ترتبط بالزمن "موجودةٌ ببساطة" (Van Leeuwen 2008، p. 67)، وهو وضعٌ تصادف أن وجد هؤلاء السكان أنفسهم فيه أو وُلدوا فيه، بمعزلٍ عن الواسطة البشرية. ويشير النصُّ التحريريُّ الوارد أعلى صورة مخيم جباليا إلى ما يلي:

> "تشهد أعداد السكان القاطنين في مخيمات اللاجئين تزايدًا متسارعًا والظروف المعيشية فيها بالغة الصعوبة – حيث تشهد البطالة معدلات مرتفعة وتكتظّ البيوت بساكنيها الذين يعانون من الفقر، ومستوى الخدمات الصحية والتعليم والنظافة العامة فيها متدنّية".

ويرد هذا النص من دون أي تحديدٍ. وتشبه الجملة "تشهد أعداد السكان في مخيمات اللاجئين تزايدًا متسارعًا" الروايات التي تتناول وباءً من الأوبئة، من قبيل زيادة أعداد البعوض أو

الجرذان في أمكنةٍ يكون "مستوى النظافة العامة فيها متدنيًا".

الصورة رقم (٧): (كتاب "الناس في المكان" ص. ١٥٣): مخيم للاجئين في جباليا، قطاع غزة: أحد أكبر مخيمات اللاجئين، التي تشهد الاكتظاظ ويعيش سكانها في فقر مدقع.

ويقول فان ليوين (Van Leeuwen، 1992، p. 49) عن مثل هذه الصور الجوية:

"إنها تمثل زاوية المراقب الذي يملك القوة والنفوذ، وهي توضع في مكانٍ عالٍ فوق حشود الجماهير الهائجة. وإذا ما أردنا استخدام صورةٍ أقوى: تؤخذ الصورة من الطيار الذي يطير على مسافةٍ مرتفعةٍ جدًا لكي يتمكّن من مشاهدة الناس الذين يرمي قنابله عليهم [. . .] وهذا هو النوع من المعرفة الذي لا يزال التعليم معنيًا بإنتاجه بصورةٍ رئيسة".

كما تظهر، على ظهر هذه الصفحة، صورةٌ فوتوغرافيةٌ للاجئين اليهود وهم في طريقهم إلى إسرائيل خلال العقد الخامس من القرن الماضي كصورة "مقابلةٍ" أو "سلبيةٍ" لصورة مخيم جباليا (ص. ١٥٤)، حيث تعرض هذه الصورة اليهود الأكراد الذي تزدحم بهم الطائرة التي تنقلهم. ويصرّح كريس وفان ليوين (Kress and Van Leeuwen، 1995: 34) بأنه "يتم استعراض العلاقات على أنها عوامل من عوامل القوة [. . .] على صفحة مزدوجة أو على جانبيْ صفحةٍ واحدةٍ أو عبر عددٍ من الصفحات". ويؤكد النص الوارد فوق هذه الصورة على العلاقة بين جانبيْ الصفحة:

"على نقيض اللاجئين الفلسطينيين، الذين لا يزال الكثير منهم يعيشون في المخيمات ولم يجرِ حلّ مشكلتهم [من قبل الدول العربية] – فقد تمّ إيجاد حلٍّ لمشكلة اللاجئين اليهود الذين نزحوا من البلدان الإسلامية قبل وقتٍ طويل [. . .]. فقد استثمرت دولة إسرائيل قدرًا كبيرًا من الجهود من أجل استيعاب هؤلاء اللاجئين".

نزع الشخصنة من خلال الرسوم الكرتونية العنصرية

لا يصوّر كتاب "جغرافيا أرض إسرائيل" سوى الفلسطينيين في أيقوناتٍ ورسومٍ كرتونيةٍ عنصرية، من قبيل الصورة الكلاسيكية للعربي الذي يطلق شاربيه ويرتدي الكوفية ويسوق جمله خلفه. ويلخّص فان ليوين (Van Leeuwen، 1992: 56) الدافع الذي يقف وراء صور التمثيل في الرسوم الكرتونية على النحو التالي:

"الرسوم الكرتونية عامةٌ على الرغم من أنها ليست مجردة. وهي تصوّر الناس كأنواعٍ، وليس كرموز. فجميع الأتراك يطلقون شواربهم وجميع العرب يملكون الإبل. إن هذه الحقيقة تستبدل الواقع الذي يوحيه النزوع الطبيعي والفردي".

ويرتدي 'العربي' الذي تُظهره الرسوم الكرتونية كأيقونةٍ (أنظر الصورة رقم (٨) أدناه) سروالاً فضفاضًا وحذاءً مدبَّب الرأس، لم يسبق لأحد أن رأى مثلهما في إسرائيل أو فلسطين. وهذا نوعٌ من أنواع أيقونة الأيقونة، التي جرى توريدها إلى الكتب المتداولة في مدارس إسرائيل من الرسوم التي كان الأوروبيون يرسمونها في كتبٍ ككتاب "ألف ليلة وليلة"، الذي يكتسب خصائصه ومعالمه ليس من 'النموذج' نفسه، وإنما من النموذج الذي يراه منتجه (Groupe µ، 1992 p. 132)، وهي تمثّل 'عربيًا' يتخيّله ذلك المنتج في سياقٍ يعيش ويعمل فيه العرب الحقيقيون. وتقدَّم هذه الرسوم للطلبة اليهود الإسرائيليين الذين يعيشون بجوار نظرائهم من المواطنين العرب، والذين قد يقضون حياتهم حتى من دون أن يقابلوهم وجهًا لوجه.

الصورة رقم (٨): (كتاب "جغرافيا أرض إسرائيل"، ص. ٣٠٣): "يرفض العرب العيش في البنايات المرتفعة ويصرّ الواحد منهم على السكن في منزلٍ من طابقٍ واحدٍ على قطعة أرض مرتفعة".

ويطلعنا النص الرئيس الذي يرافق هذه الصورة على أن:

"المجتمع العربي مجتمعٌ تقليدي، من طبيعته مقاومة التغيير، ويعارض تبنّي التجديد [. . .] ويبدو أن التحديث يعتبر خطيرًا بالنسبة له [. . .] وهو لا يبدي استعداده للتخلّي عن أي شيءٍ للصالح العام". (كتاب "جغرافيا أرض إسرائيل"، ص. ٣٠٣)

ويشكّل الإطار البيضاوي للرسم الكاريكاتوري أعلاه سياجًا يعبّر عن "نظام منغلق يتصرف بكل ما فيه كمركزٍ للطاقة [و] يعزل [صورته] عن البيئة [. . .] ويتم التعبير عن وظيفته كسياجٍ بلا مواربةٍ عندما يكون شكل هذا السياج دائريًا". (Arnheim 1988، pp. 56، 62). ويجري عزل العربي، في هذه الأيقونة، عن المنزل الحديث في صورةٍ يتعذر إلغاؤها. كما يظهر جزء من الجمل – وهو العلامة الدالّة على البدويّ البدائيّ – داخل الإطار، ولكنه يدير ظهره للمنزل الحديث الذي يتّضح أنه لا يستطيع أن يسعه.

وتوضَع هذه الأيقونة، التي تتكرّر بصورٍ متباينة في جميع ثنايا الكتاب (مع أو بلا امرأةٍ تجلس القرفصاء، أو مع أو بلا مجموعةٍ من الأطفال، أو راكبًا على الجمل أو يقوده)، في أي موضع يتطرّق إلى 'العرب'، خارج الإطار. وعلى خريطةٍ أخرى تبين "التوزيع الجغرافي للقرى والمدن العربية في إسرائيل" في الكتاب (ص. ١٤٥)، يظهر شخصان من 'العرب' خارج إسرائيل على الجانب الآخر من نهر الأردن، ومعزولان عن منطقة سكناهما على نحوٍ يبدو معه أنهما نُقلا عبر الحدود، في المملكة الأردنية، حيث حاولت إسرائيل مرارًا وتكرارًا تسفيرهما إليها. وتفصل الحدود أو النهر، الذي يظهر كإطارٍ بيضاوي، هذين الشخصين ويضعهما في حيّزٍ مختلفٍ اختلافًا كليًا. ومثل هذه الوسائط "تقيّد التفاعل وتخلق العقبات، بصورةٍ لا يستطيع سوى من يملكون المفتاح تجاوزها" (Van Leeuwen، 2005: 16).

وتترافق أيقونات 'العربي' مع جميع الخرائط، والرسوم التوضيحية والنصوص اللفظية التي تتناول مسألة 'العرب'. ولذلك، تؤدّي هذه الخرائط والرسوم والنصوص وظيفة 'التصوير' و'التفصيل' (Van Leeuwen، 2005، p. 230)، وتحدّد من الناحية البصرية خصائص 'العرب'، بحيث تظهر الهيئة التي يبدو عليها هؤلاء 'العرب'. ولكن بما أنه لا توجد خريطة أو رسم توضيحي أو 'رسم هرميّ' يظهر الأطباء أو المحامين أو رجال الأعمال أو الأكاديميين أو الفنانين أو الصناعيين العرب، فإن هذا التصوير يحصر مصطلح 'العربي' بالمزارعين والبدو البدائيين الذين يُحاكون المهرجين، والذين ليس لهم وجودٌ في إسرائيل ولا في فلسطين في هذه الأيام.

وعلى خلاف خريطة السكان العرب التي تُقصي العرب من الأرض، تظهر خريطة السكان اليهود رسومًا لأشخاصٍ يتضح للناظر أنهم داخل الإطار. فعلى هذه الخريطة (الواردة على صفحة ١٣٦ من كتاب "جغرافيا أرض إسرائيل" – أنظر الصورة رقم (٩) أدناه)، والتي ترد في مكانٍ مثاليٍّ جديدٍ (في الزاوية اليسرى العليا) من صفحةٍ تحمل العنوان "الهجرة إلى إسرائيل باعتبارها عاملاً ديمغرفيًا مؤثرًا"، تخفي الطائرة التي تنقل المهاجرين اليهود أجزاءً من سورية، ويرفرف علم إسرائيل على ربوع البلاد، بحيث يغطي جميع أرجاء فلسطين (قطاع غزة والضفة الغربية)، ويحثّ المهاجرون اليهود الخطى مباشرةً نحو الأراضي الفلسطينية المحتلة. ويرى المرء أسفل هذه الصورة عقد المواطَنة الذي يوقّع عليه القادمون اليهود الجدد بعدما يصلون إلى إسرائيل. وتصوّر هاتان الخريطتان الواقع الذي يقضي بأنه في الوقت الذي يُطرد فيه السكان الأصليون إلى خارج الحدود، يتم جلب اليهود من البلاد الأخرى لكي يحلّوا محلهم ويستوطنوا أرضهم.

الصورة رقم (٩): الهجرة اليهودية تكتسح إسرائيل

وفضلاً عما تقدّم، يظهر العربي وزوجته الشبيهان بالأيقونة على هرمٍ سكانيٍّ يقسّم سكان إسرائيل إلى "يهود وآخرين" مقابل "العرب" (كتاب "جغرافيا أرض إسرائيل" – أنظر الصورة رقم (١٠) أدناه). فبينما يتم تمثيل العرب من خلال الرسوم الكرتونية الواردة أعلاه، يشبه اليهود والآخرون الناس الغربيين 'العاديين'، دون إيراد أية علاماتٍ دالّةٍ معينة. ونجد هنا أن التمييز لا يقتصر على التفريق بين 'هم' و'نحن'، وإنما بين 'هم' و'نحن وكافة من ليسوا هم'. ولا يقدم هذا الكتاب أي تفسير يبين من هم هؤلاء 'الآخرون'. وبذلك، فلا مناص من النتيجة التي تفيد بأن بعض 'الآخرين' من غير اليهود يستحقون إدراجهم ضمن فئة اليهود طالما لم يكونوا عربًا.

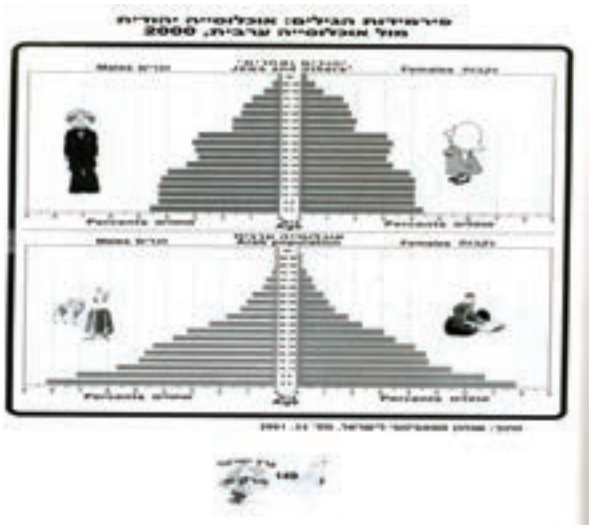

الصورة رقم (١٠): هرم العمر: السكان اليهود مقابل السكان العرب

التمثيل السيميائي
اللغة السردية التي تشرح 'التطوّر'

يستعرض هذا القسم 'صور التصنيف' (Van Leeuwen 1992: 54، Morgan 2003) التي تُستخدم للتعبير عن التطور والتخلّف.

ويشكّل التصنيف أداةً لتنظيم العالم وأداةً من أدوات السيطرة كذلك (Hodge and Kress، 1993: 63). ومن بين أساليب التصنيف التي تجمّد علاقات القوة في إسرائيل تصنيف اليهود مقابل غير اليهود، وتصنيفٌ آخر يرتبط به هو تصنيف المجتمعات المتقدمة مقابل المجتمعات المتخلفة. وتعتبر هذه التصنيفات، بحسب ما يسميها ألبورت (Allport، 1958: 171)، "احتكارية، وغير متمايزة، وثنائية القيمة وجامدة" يتعذر إلغاؤها في العادة.

تقول كتب الجغرافيا المدرسية في إسرائيل بأن "الحدث التاريخي المتمثل في بعث أمة اليهود ترك أثره على المشهد" (Bar-Gal، 1993a: 60). ويجري الاصطلاح على تسمية هذا 'الأثر' في أحيانٍ كثيرة بـ 'التطوّر' أو 'التقدّم'، وهو يظهر في الإنجازات التي حققتها الحركة الصهيونية، من قبيل تذليل الصحراء، وزراعة الغابات، وتنفيذ مشاريع البناء الضخمة وتحويل مجاري الأنهار. وعلى الرغم من أن هذه المشاريع، كما يقول يفتاحئيل (Yiftachel، 2006، p. 38)، "مغلّفة في خطاب التنمية والحداثة والديمقراطية، فالحقيقة المادية القائمة لا يمكن أن يعتريها الخطأ، فهي تتضمن استلاب الأقلية وإقصاءها". ويندرج (الدروز والبدو) الفلسطينيون ضمن لغة السرد الشارحة التي تتناول التطور باعتبارهم قطاعاتٍ متخلّفةٍ غير غربية وتعمل إسرائيل على 'تطويرها' تمامًا كما تعمل على تطوير المشهد والمناظر الطبيعية (Bar-Gal: 1994: 231). ولكن الكتب المقرّرة في المدارس الإسرائيلية تعزو هذا 'التخلف' إلى أسلوب الحياة 'العربي' الذي يعتبر 'تقليديًا' و'قبليًا'، وهي لا تعزوه إلى مشاريع التنمية الإسرائيلية التي تستبعدهم وتقصيهم وتنشر الفقر في أوساطهم. ويفسّر يفتاحئيل (Yiftachel، 2006: 133، 166) هذا الأمر بقوله: "من بين الملامح الصارخة للجغرافيا العربية الاستقرار والاحتواء الذي فُرض عليها. فلم يطرأ أي تغييرٌ على المناطق العربية الفلسطينية منذ العام ١٩٤٨، وهو ما يشكّل منطقةً عربيةً مستقرة". وعلى الرغم من أن "العرب يشكّلون ما نسبته ٢٠٪ من مجموع السكان، فهم لا يملكون سوى ٣٫٥٪ من مساحة الأرض [...] لقد عملت الدولة على الاستيلاء على نصف مساحة الأراضي ونزع ملكيتها من أصحابها بعد العام ١٩٤٨ وشيّدت ما يربو على ٥٠٠ مستوطنةٍ يهوديةٍ عليها [...]. وقد بنت الدولة، منذ قيامها، أكثر من ٧٠٠ تجمعٍ سكانيٍّ يهوديّ، ولم تشيّد تجمعًا واحدًا للعرب". وعلاوةً على ذلك، فقدَ المواطنون الفلسطينيون ممتلكاتهم الشخصية وأصولهم ومصالحهم العامة في أرضهم لأن إسرائيل أعلنت أن جميع أراضيهم تقريبًا هي بمثابة أراضي دولة. "وعلى الرغم من زيادة أعداد السكان العرب إلى ستة أضعاف بحلول العام ٢٠٠٦، فقد تقلّصت مساحات الأراضي التي يملكون التصرف فيها. ومن شأن هذا الوضع خلق غيتوات للعرب على أرض الواقع".

وهذا يفسّر السبب الذي تعتبر إسرائيل من أجله أن كل منزلٍ يشيّده المواطنون العرب الفلسطينيون غير قانوني وتقوم بهدمه على الفور. ومع ذلك، تشير الكتب المدرسية إلى هذا الوضع بصورةٍ مغايرة. فعلى سبيل المثال، يورد كتاب "جغرافيا أرض إسرائيل" العنوان التالي في صفحة ١٩٩ منه:

"البناء غير القانوني في القرى العربية

بُنيت غالبية المنازل غير القانونية على أراضٍ تابعةٍ للبلديات وعلى أراضٍ زراعيةٍ تعود ملكيتها إلى الدولة بموجب التشريعات الإسرائيلية. ويأتي هذا البناء غير القانوني نتيجةً للرغبة في التهرّب من دفع رسوم الترخيص المطلوبة".

ومن بين خصائص العقلية القبلية العربية التي لا يفتأ الكتاب المذكور يردّدها ويكررها، كما يوضّح الاقتباس أعلاه، عدم رغبة المواطنين العرب الفلسطينيين في تخصيص الأراضي للاستخدامات العامة:

"تنظيم استخدام الأراضي في الوسط العربي

لا يعارض الوسط اليهودي تخصيص بعض الأراضي الخاصة لمشاريع البناء العامة. أما في الوسط العربي، فيسود توقّع بوجوب الوفاء بكافة الخدمات العامة وتأمينها من احتياطي الأراضي التابعة للدولة".

إن هذا التمييز الصارخ الذي ترسمه الكتب المدرسية بين المجتمعات المتقدمة والمتخلفة يناقض التفكير الحالي الذي يراه علم جغرافيا التنمية، الذي يقول بأنه:

"لا ينبغي الوثوق بلغة السرد الشارحة، كالحديث عن 'التنمية' مثلاً، [و] يتوجب إثارة التساؤلات حول 'التنمية'. فلا يمكن فهم العالم بما يشمله من تبايناتٍ واستيعابه باستخدام عددٍ ضئيلٍ من المفاهيم. فالناس الذين يختارون المفاهيم التي تأتي من المناطق الغنية في العادة إنما يصفون العالم بحسب رؤيتهم للكيفية التي يجب أن يكون عليها هذا العالم، وهم يسمّون تلك المفاهيم مفاهيم عامة" (Page 2003 : 98).

ويقول بيج (Page) بأنه "إذا كان لأعمال التنمية أن تخضع للتنظيم، فيتعيّن فرض الرقابة عليها"، وهو يقترح كذلك "تحليل التكتيكات المنطقية التي يوظّفها المدافعون عن مشاريع التنمية . . . "، حيث يصرّح بأن "العمل الحالي الذي تؤديه الجغرافيا يسعى إلى التشويش على بساطة دعاية التنمية من أجل تعميق فهمنا للأماكن المختلفة [. . .]. لقد استغنت جغرافيا التنمية عن وجهة النظر التي تقول بإمكانية تبرير أي شيءٍ طالما كان يحمل مسمى 'تقدمي'" (Page 2003 : 101).

ومن بين أكثر صور التمثيل الشائعة للتخلّف ما يُعرف بـ 'صورة أوكسفام' (Oxfam image›) (Hicks، 1980، p. 13›)، وهي صورة تسِم المزارع البدائي الذي يحمل محراثه البدائي، بحيث لا تعبّر عن أي شيءٍ آخر سوى 'التخلف' (Van Leeuwen، 1992 : 56). ويعرض كتاب "الناس في المكان" (ص. ١١٠) إطارًا يضمّ أربع صور، تحت عنوان "من الحياة التقليدية إلى الحياة الحديثة عند السكان غير اليهود" (أنظر الصورة رقم (١١) أدناه)، حيث نرى على الجانب الأيمن من هذا الإطار (وهو الجزء 'المخصص' من الصفحة للإشارة إلى الماضي المعروف الذي لا يثور جدالٌ حوله) "الزراعة التقليدية في الجليل" وقريةً 'تقليدية'. ونشاهد على الجانب الأيسر (الذي يُخصَّص للمعلومات الجديدة) ما يقابل هاتين الصورتين: "المباني الحديثة في ضواحي مدينة أم الفحم" وحقلاً زُرع باستخدام الآلات الزراعية الحديثة (وذلك في الخانة التي تحتوي على المعلومات الجديدة المثالية).

الصورة رقم (١١): (كتاب "الناس في المكان"، ص. ١١٠): من "الحياة التقليدية إلى الحياة الحديثة عند السكان غير اليهود"
الصورة اليمنى في الأعلى: الزراعة التقليدية في الجليل
الصورة اليمنى في الأسفل: البناء التقليدي في قرية دير حنا العربية في الجليل الأسفل
الصورة اليسرى في الأعلى: الزراعة الحديثة في الطيبة، وهي إحدى القرى العربية الواقعة على السهل الساحلي
بإذنٍ من د. تسفي رون (Dr. Zvi Ron).

ويُرى الشكل المشوَّش للمزارع في الحقل 'التقليدي' من مسافةٍ بعيدةٍ وعلى جانب الصورة، وهو بالتحديد "لاشخصاني باعتباره نوعًا، وليس إنسانًا" (Van Leeuwen and Selander 1995: 46). ولا يملك هذا المزارع أية علامةٍ دالةٍ إثنية، من قبيل الكوفية أو اللباس 'العربي'، وإنما يرتدي قميصًا ذا لونٍ كاكي، وسروالاً فضفاضًا كاكيّ اللون، وقبعةً صوفيةً كاكيّة اللون كذلك، وهي ملابس ترمز بمجموعها إلى العطايا التي اعتاد الإسرائيليون منحها لجيرانهم الفقراء. وقد تحوّل العوز والاعتماد على نزعة الخير عند اليهود إلى ما يعرّفه أوغبو (Ogbu، 1986: 96-97)، الذي يستشهد به كازدين (Cazden 2002) في كتابه "خصائص ثقافية ثانوية" لهؤلاء السكان، بحيث تعبّر عن 'الحالة العربية' أو حتى عن 'الغيْريّة اليهودية'. و"تعبّر الخصائص الثقافية الثانوية [. . .] عن الملامح الثقافية المختلفة التي وجدت طريقها إلى الوجود بعد أن جرى التواصل بين جماعتين، ولا سيما في أشكال التواصل التي تنطوي على إخضاع جماعةٍ لجماعةٍ أخرى منهما". ويسير المزارع من جهة اليسار إلى جهة اليمين، بحيث يبتعد ويدير ظهره للحقل "الحديث" المزروع باستخدام الآلات الزراعية على يساره، والذي يقع في الجزء الذي يتضمن المعلومات الجديدة والمثالية (الصورة اليسرى في الأعلى) من إطار الصور وفوق التعليق "الزراعة الحديثة في الطيبة، وهي إحدى القرى العربية الواقعة على السهل الساحلي". وبذلك، يتلاشى التخلف الذي يسود منطقة الجليل التي يقطنها العرب لصالح الحداثة كلما اقترب المرء من المركز اليهودي.

وللمنازل الواقعة في "القرية العربية التقليدية في الجليل"، التي تعرضها الصورة اليمنى أسفل الإطار (المعلومات الحقيقية المسلّم بها)، سقوفٌ مستوية مصممة لكي تجمع مياه الأمطار. ولون جدران هذه المنازل هو لون الأرض التي تحيط بها. والمنازل مرتبطةٌ ببعضها البعض وتقع في وجهة مركزٍ عامّ. وفي المقابل، تتألف "المباني الحديثة في ضواحي مدينة أم الفحم"، التي تقع في خانة المعلومات الجديدة والحقيقية (الصورة اليسرى في الأسفل) من منازل فرديةٍ متناثرةٍ تشبه المنازل التي تُبنى في الغرب، حيث تعلوها سقوفٌ منحدرة من القرميد الأحمر – وهي مصممة لمقاومة الثلوج. وهذه البيوت مشيدةٌ على منحدر غير مزروع من جبل صخري. وليس بين هذه البيوت طرقٌ تقود المرء من بيتٍ إلى آخر. ولذلك، يعني التقدم الانتقال من حياة المجتمع إلى السكن الفرداني ومن أسلوب البناء الوظيفي السائد في منطقة الشرق الأوسط وأشكاله وألوانه إلى أساليب البناء الغربية.

قوة اللون باعتباره مصدراً سيميائيًا من مصادر المعنى

"يعتبر اللون مصدرًا سيميائيًا مثله مثل أي شيءٍ آخر. فالألوان منتظمةٌ وتحمل علامات تعزّزها مصالح صانعها في تشكيلها، وهي ليست اعتباطيةً أو فوضويةً بمجموعها". (Kress and Van Leeuwen 2002: 345).

للّون ثلاثة أبعاد: الدرجة، والقيمة التي تشير إلى درجة خفّته وشدّته، والإشباع (الصفاء) الذي يشير إلى كثافة اللون أو لمعانه (Monmonier، 1996: 164). ويلاحظ فان ليوين وسيلاندير (Van Leeuwen and Selander، 1995: 506) بأنه "كلما زادت حدة اللون وإشباعه، زادت درجة حقيقة الشيء الذي يمثله"

وتعتبر الصور الجوية أمثلةً جيدةً على التحكّم في المسافة واللون والتلاعب فيهما. فعلى الرغم من تصوير القرى اليهودية والعربية من الأعلى، فإن الصور الجوية للمستوطنات اليهودية تتمكّن من اكتساب مظهرٍ يحاكي البطاقة البريدية، بحيث تظهر البيوت الفردية والحقول والمناظر الطبيعية على نحوٍ قد نستطيع معه لمسها وتحسّسها (Van Leeuwen 1992). وفي المقابل، يجري تصوير القرى العربية من خلال لقطةٍ أبعد بكثير، بحيث تظهر كصورةٍ فوتوغرافيةٍ بسيطة. كما تصوَّر المستوطنات الإسرائيلية، حتى تلك التي تقع في قلب صحراء النقب، في ألوانٍ غربيةٍ مشبّعة، بحيث تظهر فيها المنازل بيضاء مغسولة، ولها سقوف حمراء منحدرة، وتحيط بها الأراضي الخصبة والمزروعات الخضراء والأزهار اليانعة. وهذا يعبّر، وفقًا للأيديولوجية الصهيونية– الإسرائيلية، عن 'الأثر' الذي أفرزته عودة اليهود، والتي 'جعلت البراري تزهر وتثمر'.

وقد تمثل الألـوان، مثَلها مثل اللغة المحكية، معاني فكريةٍ وشخصانيةٍ ونصّية. فمن الناحية الفكرية، "يستطيع اللون أن يعبّر عن أشخاص وأماكن وأشياء محددة، إلى جانب طبقات من الناس والأماكن والأشياء، وعن أفكارٍ تتّسم بقدر أكبر من العمومية" (Kress and Van Leeuwen 2002: 347). وتشير الألوان "اليهودية" في كتب الجغرافيا المتداولة في المدارس الإسرائيلية إلى التقدّم، أو إلى مستوىً متقدمٍ من المعيشة أو الثقافة

المستوردة من الغرب. وفي المقابل، تدلّ الألوان الطبيعية "العربية" على التخلف الذي يسم الشرق الأوسط (Bar-Gal، 2000)، وهو ما يعبّر بالتالي عن "الحالة غير اليهودية".

ومن الناحية الشخصية، "يفرز استخدام اللون أثره على الأشخاص ويتحكّم فيهم، حيث يعبّر اللون عن وضع وعن مزاج" (Kress and Van Leeuwen 1996: 349). ويفترض مونمونير (Monmonier، 1996. p. 170) بأن "[...] بعض الألوان يحمل معنىً دقيقًا إضافيًا قد يؤثر على تفسيرنا [...] وذلك بسبب العواطف التي تضمرها أو بسبب المواقف المشروطة بالثقافة أو شعورنا تجاه العناصر المرسومة على الخريطة". وقد تنسحب هذه الملاحظة كذلك على الصور الفوتوغرافية. فألوان القرى العربية – التي تظهر باللون الأصفر الباهت والبني والرمادي والأخضر الزيتي – تعبّر في الوعي الإسرائيلي عن التهديد والإقصاء (Bar-Gal، 2000). وكما يلاحظ مونمونير، "يعتبر النسق الذي يشمل اللونين الأخضر والأزرق مفضَّلاً بصفةٍ عامةٍ على نسقٍ من اللونين الأصفر والأخضر المائل إلى الاصفرار" (Monmonier، 1996، p. 170).

ومن الناحية النصية، أو من ناحية 'الأسلوب'، "يستطيع اللون أو تنسيق الألوان خلق التماسك" (Kress and Van Leeuwen، 1996: 349). ففيما يتصل بالتماسك، تتناقض المقاربة بين نسقين من أنساق الألوان – الألوان 'العربية' الطبيعية مقابل الألوان 'اليهودية' المصطنعة – وتتعارض بعضها مع بعض، بحيث تمثل علاقات القوة القائمة بين الثقافتين. فالهيمنة اليهودية الغربية على المشهد العربي الشرقي هي ما يقدّمه نظام التعليم الإسرائيلي على أنه تطوّر وتقدُّم. وكما يقول بار- غال (Bar-Gal، 2000، p. 172)، يتم تقديم الأماكن في كتب الجغرافيا المدرسية بما يتفق مع وجهات نظر مؤلفيها.

الخلاصة

إن وجهة النظر التي تقول بأن لا علامة تُخلق في عزلةٍ أو بطريقةٍ لا تثير الاهتمام بها، وأن لا علامة تعتبر 'حياديةً' أو مستقلةً عن الأيديولوجية، هي وجهة نظر يشترك فيها علماء الجغرافيا والمختصون في علم السيمياء الاجتماعية على السواء. وتوظف الكتب المدرسية المتداولة في إسرائيل الوسائط البصرية العلمية، التي يجري عرضُها دون تحيز، من أجل غرس الأيديولوجية السياسية والأفكار التمييزية في أذهان الطلبة. وتحدد الخرائط المضلِّلة والصور المهينة، التي تشكل جزءًا لا يتجزّأ من الخطاب المتمركز حول الإثنية، المفهوم التي يشكّله الطلاب حول بلدهم وحول جيرانهم.

لا تقدّم الكتب المدرسية الطبيعة الأصيلة للخطاب العلمي، بل تستخدم الجغرافيا لغايات ترسيخ القومية الإثنية الإسرائيلية و"الطابع الإقليمي الإثني" الإسرائيلي الذي "يعبّر عن الواقع الجغرافي والعملية السياسية في آنٍ معًا"، (Yiftachel، 2006: 166). ويجري، في هذه العملية، طمس وجود الفلسطينيين ومحوه من المشهد الطبيعي ومن عالم حياة البلد، ولا سيما من "تلك المجالات الاجتماعية غير المنظّمة [التي] تقدّم مستودعًا من المعاني والتفاهمات المشتركة [...]، وهي الخلفية التي يجري فعل التواصل بناءً عليه" (Finlayson، 2005، p. 52).

وتعلّم كتب الجغرافيا المدرسية الطلبة الإسرائيليين النظر إلى أنفسهم على أنهم أسياد أرض إسرائيل/ فلسطين، وتعلمهم السيطرة على سكانها وفضائها، وعمل أي شيء ضروري لتوطيد هيمنة اليهود وتعزيز 'تقدّمهم' فيها.

وهذا الأسلوب المتّبع في تمثيل الآخرين، وهو أسلوبٌ نجده في الكتب المدرسية الأوروبية التي تتناول "العالم الثالث" والمهاجرين كذلك (Van Leeuwen، 1992)، يزرع في نفوس الطلبة العداوة والاحتقار تجاه جيرانهم وبيئتهم. وهو أسلوبٌ لا يهيّئهم للتعايش السلمي في المجتمع المتعدد الثقافات الذي يجدون أنفسهم يعيشون فيه.

[مترجم عن الانكليزية]

الهوامش

١ أُعدَّت هذه الدراسة في معهد التعليم (Institute of Education) في جامعة لندن، وشاركت في الإشراف عليها مؤسسة (Leverhulme Trust) ومعهد موفيت لأبحاث التعليم في إسرائيل (Mofet Institute for Educational Research).

٢ لا تتطرّق هذه الورقة في مضمونها إلى الكتب الدراسية المقرّرة في المدارس الخاصة التي تديرها الطوائف اليهودية الأرثوذكسية والمدارس الدينية التابعة للدولة.

٣ Reisigl and Wodak، 2001: 28.

٤ تعتبر الكتب المدرسية المتداولة في إسرائيل كتبًا تجارية، ويستطيع المعلمون اختيار الكتب التي يرغبون في تدريسها. ولكن يتعيّن الحصول على موافقة وزارة المعارف على جميع الكتب التي يختارها المعلمون، أو يُشترط أن تكون متوافقةً مع المنهاج الوطني على الأقل.

٥ وقد تثبّتنا من صحة هذا الاختيار من خلال التقارير التي نشرتها مستودعات الكتب حول أكثر الكتب انتشارًا والتقارير الشخصية التي أعدّها المعلمون في هذا الصدد.

٦ جميع الحقوق محفوظة لدور النشر التالية: مركز تكنولوجيا التعليم (Centre for Educational Technology) ("الناس في المكان"، و"المستوطنات في المكان" و"إسرائيل: الإنسان والمكان")، ودار ليلاخ للنشر (Lilach Publishers) ("جغرافيا أرض إسرائيل")، ودار معالوت للنشر (Maalot Publishers) ("بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط").

٧ يصف فان ليوين في كتابه المنشور في العام ٢٠٠١ موقفًا مماثلاً للأميركيين الذين يعاملون جميع "الآخرين" الذين مارسوا هيمنتهم عليهم باعتبارهم "سودًا".

٨ مصطلح "أراضي الدولة" هو المصطلح القانوني الذي يشير إلى الأراضي التي صودرت من الفلسطينيين والبدو في مناطق الجليل، والنقب والأراضي المحتلة.

٩ يذكّر التعليق، الذي يرافق الخريطة الصادرة عن وزارة الخارجية، الناظر إليها بأن "'وسط' إسرائيل الواقع في منطقة شارون كان بين عاميْ ١٩٤٨ و١٩٦٧ ضيقًا جدًا، بحيث لم تتجاوز مساحته ١٥ كيلومترًا (أو تسعة أميال) في المنطقة الممتدة بين طولكرم ونتانيا. وكانت هذه المساحة تشكّل خط وقف إطلاق النار، وليست حدودًا دائمةً، كما كانت تعتبر من المناطق التي لم يكن في وُسع إسرائيل الدفاع عنها، ولا سيما بسبب تضاريسها التي تركت القوات الإسرائيلية تتمركز في السهول، بينما كانت الجيوش العربية تسيطر على الأراضي المرتفعة التي تشرف على تلك السهول. وقد اعتاد وزير الخارجية الإسرائيلية، آبا إيبان (Abba Eban) على وصف تلك الحدود أو خطوط وقف إطلاق النار على أنها 'حدود أوشفيتش' (‹Auschwitz boundaries›) لكي يعبّر عن المخاطر التي تتمخّض عن الإبقاء عليها. أنظر الموقع الإلكتروني:
http:/www.mfa.gov.il/MFA/facts about Israel/Israel in maps#threats&topography.

وقد جرت زيارة هذا الموقع والاستشهاد به في يوم ١ كانون الثاني ٢٠٠٤.

١٠ تمثل البؤر أو (الميتزبيم) مستوطنات صغيرة تقع خارج المناطق الحضرية، وجرى تشييدها خلال العقد السابع وبداية العقد الثامن من القرن الماضي في الجليل، ويتراوح عدد الأسر التي تقطن فيها من ٣٠ إلى ١،٠٠٠ أسرة. وتتناثر هذه المستوطنات بين القرى العربية (Yiftachel 2006:33).

١١ يورد كتاب "كيف تكذب باستخدام الخرائط" (How to Lie with Maps) (ص. ٩٥) خريطةً مشابهةً نشرها الصندوق القومي اليهودي في كندا في العام ١٩٧٣، حيث تبدو إسرائيل فيها بضعفي حجمها الحالي حينما كانت تحتل شبه جزيرة سيناء. وتظهر في هذه الخريطة بقعةٌ بيضاء تقع ضمن مساحة ضيقة بين كتلتين تظهران باللون الغامق من البلدان الإسلامية، إلى جانب العنوان الذي يعلن: "الدليل المرئي على كذب العرب حول 'عدوان' إسرائيل".

١٢ هذه المصطلحات مقتبسةٌ من كتاب فان ليوين (Van Leeuwen 1992، p. 45)، الذي يستخدم المصطلحات الشائعة في التلفزيون والأفلام. أنظر أيضًا (Van Leeuwen 2000، p. 340).

١٣ لا يمثل عدد اللاجئين الفلسطينيين، الذي يبلغ مليونًا، العدد الدقيق، غير أنه هو العدد الذي يورده الكتاب المذكور. وتعترف إسرائيل بوجود ثلاثة ملايين لاجئ، في حين تشير وكالة غوث وتشغيل اللاجئين (الأونروا) إلى أن عددهم يصل إلى ٣٫٥ مليون لاجئ. ويقول الفلسطينيون بأن عدد اللاجئين يصل إلى ٥ ملايين، منهم ١٫٥ مليون لاجئ في قطاع غزة.

١٤ يشير كريس وفان ليوين (Kress and Van Leeuwen، 1996، 1995) إلى أن ترتيب الصور إلى اليسار واليمين وإلى الأعلى والأسفل يحمل معنىً أيديولوجيًا. ففي اللغة الإنكليزية، قد يدلّ الجانب الأيسر على الجزئية المسلّم بها أو المتفق عليها من الرسالة المعنية، بينما يتضمن الجانب الأيمن المعلومات الجديدة. وفي اللغة العبرية، تقع المعلومات المسلّم بها والمعروفة والتي لا يثور جدلٌ حولها على الجانب الأيمن، في حين توضع المعلومات الجديدة على الجانب الأيسر من الصفحة. ومع ذلك، فنحن نرى أن الجانب الأسفل من الصفحة مخصَّصٌ، في جميع الصور، للمعلومات الحقيقية الجليّة، بينما يُخصّص الجزء الأعلى من الصفحة للمعلومات التي تقدَّم على أنها معلوماتٌ مثاليةٌ أو مجردة.

قائمة المصادر

- Aharony. Y. & Sagi T. (2002). *The Geography of the Land of Israel* - A Geography textbook for grades 11-12. Tel-Aviv: Lilach Pub. (*GLI*)
- Allport, G.W. (1958). *The Nature of Prejudice*. New-York. Doubleday Anchor.
- Arnheim, R.A. (1988). *The Power of the Centre: A study of composition in the visual arts*. Berkeley. University of California Press.
- Bar-Gal, Yoram (1993a). *Moledet and Geography in a hundred years of Zionist Education*. Tel-Aviv: Am Oved Publishers.
- Bar-Gal, Y. (1993b). Boundaries as a topic in geographic education: The case of Israel, *Political Geography, 12*(5), 421-435.
- Bar-Gal, Y. (1996). Ideological Propaganda in Maps and Geographical Education " in J. van der Schee & H. Trimp, *Innovation in Geographical Education*, Netherlands Geographical studies, IGU, Commission on Geographical Education, Hague, pp. 67-79.
- Bar-Gal, Y. (2000). Values and Ideologies in place descriptions: The Israeli Case. In *Erdkunde*, archive for scientific geography Vol. 54, 168-176.
- Bar-Gal, Y. (2003). Geographic Politics and Geographic Education: A Talk. Conference of the Geographic Society, Bar-Illan University, Tel-Aviv, Israel.
- Bar-Gal, Y. (2004). Unity - Transformation - Unity – Dissolution Metamorphoses in the Country's Landscape. in Ayal, A., (2004) *Our Landscape*. Notes on Landscape Painting in Israel, Haifa. Art gallery, Haifa University, 29-33.
- Bar-Navi, E. (1998). *The 20th century- A History of the people of Israel in the last generations,* for grades 10-12. Tel-Aviv: Sifrei Tel Aviv Pub.
- Barthes, R. (1977). *Image, Music, Text*. London: Fontana.
- Baudrillard, J. (1983). *Simulations*. USA. Semiotext(e).
- Bernstein, B. (1996). *Pedagogy, Symbolic Control and Identity: Theory, Research, Critique*. London: Taylor and Francis Publishers.
- Boggs, S. W. (1947). Cartohypnosis, *Scientific Monthly, 64,* USA. The Science Press 469-476.
- Cazden, C. (2001). *Classroom Discourse: The language of teaching and learning*. Portsmouth, NH. Heineman.
- Coffin, C. (1997). An investigation into secondary school history. In: F. Christie and J.R. Martin Eds. *Genres and the Institutions*. Open Linguistic Series. London and New York. Continuum. Pp. 161-196.
- Eldar, Tz. And Yafe L. (1998). *From Conservatism to Progress* - A History Textbook for grade 8. Tel-Aviv: The Ministry of

- Page, B. (2003). Critical Geography and the study of Development. Showers of Blessings? In: *The Student's Companion to Geography*, second edition. Blackwell Pub. Ma. USA. 97-103.
- Panofsky, *Meaning in the Visual Arts*, 1974. Princeton, Princeton University Press.
- Podeh, E. (2002). The Arab Israeli Conflict in Israeli History Textbooks, 1948-2000. London, Bergin and Garvey.
- Rap, E. and Fine, Tz. 1996/1998. *People in space* A Geography textbook for 9th grade. Tel-Aviv: The Centre for Educational Technologies Pub.(*PIS*)
- Rap, E. and Shilony-Tzvieli, (1998). I. *Settlements in space:. Chapters in the Geography of settlements in the world*. Tel-Aviv: The Centre for Educational Technologies Pub. (*SIS*).
- Vaadya, D. Ulman, H. and Mimoni, Z. (1994). *The Mediterranean Countries* for 5th grade. Tel Aviv. Maalot Publishers.(*TMC*)
- Van Leuuwen, T. (2001). Semiotics and Iconography. In: VL, Th. and Jewitt, C. Eds. 2001: *Handbook of Visual Analysis*. London and New-York. Sage Publications. 92-119.
- Van Leuuwen, T. (1992). The schoolbook as a multimodal text, *International Schulbuch Forschung, 14*(1), 35-58. Frankfurt: Diesterweg.
- Van Leeuwen, T. (1996). The representation of social actors. In: C.R. Caldas-Coulthard, & M. Coulthard Eds. *Texts and Practices: Readings in Critical Discourse Analysis*. London, Routledge.
- Van-Leeuwen 2000: Visual Racism. In: Reisigl and Wodak Eds. *The Semiotics of Racism – Approaches in Critical Discourse Analysis*. Vienna. Passagen Verlag. Pp. 333-351.
- Van Leeuwen, T. (2005). *Introducing Social Semiotics*. London. Routledge.
- Van Leeuwen, T. (2005a). Multimodality, Genre and Design. In: Norris, S. and Jones, R.H. *Discourse in Action*. London. Routledge. 73-95.
- Van Leeuwen, T. (2007). Legitimation in Discourse and Communication. In:
- *Discourse and Communication* Vol 1(1), 91–112. London. Sage Publications.
- Van Leeuwen, T. (2008). *Discourse and Practice. New Tools for Critical Discourse Analysis*. Oxford Studies in Sociolinguistics. Oxford. Oxford University Press.
- Van Leeuwen Th. And Selander S. (1995) Picturing our "heritage" in the pedagogic text: Layout and illustrations in an Australian and a Swedish history textbook.' In: *Journal of curriculum studies,* vol.27, no.5, pp. 501-522. Taylor and Francis Group. Ltd.
- Woodrow, R. (1999) 'Erwin Panofsky's Iconology'.
- URL: *http*//www. *newcastle.edu.au/discipline/fine-art/theory/ analysis/ panofsky.htm*. Copyright © 1999, Ross Woodrow and the University of Newcastle --All Rights Reserved
- Yiftachel, O. (2006). *Ethnocracy: Land and Identity Politics in Israel/Palestine*.
- Philadelphia, Penn University Press.
- Yona, Y. (2005) *In Virtue of Difference: The Multicultural Project in Israel*. Israel.
- The Van-Leer Institute in Jerusalem and Ha-kibbutz Ha-Meuhad publishers.

Education and Maalot publishers

- Fine, Tz., Segev, M. & Lavi, R. (2002). *Israel-The Man and the Space – selected chapters in geography*. Tel-Aviv. The Centre for Educational Technologies Pub. (*IMS*)
- Finlayson, J.G. (2005). *Habermas- a Short Introduction*. Oxdord. Oxford University Press.
- Firer, R. (2004) 'The presentation of the Israeli-Palestinian conflict in Israeli history and civics textbooks'. In: Firer, R. and Adwan, S. *The Israeli-Palestinian conflict in Israeli history and civics textbooks of both nations*. Hannover. Georg-Eckert-Institute fur internationale Schulbuchforschung. Verlag Hahnsche Buchhandlung.
- Hicks, D. (1980) 'Images of the World: An Introduction to Bias in Teaching Materials'. *Accidental Paper no. 2*. Centre for Multicultural Education. London. UK. Institute of Education.
- Genette, G. (1982). *Palimpseste: La Littérature au Second Degré*. Paris: Editions du Seuil.
- Groupe µ. (1992). *Traité du Signe visuel: Pour une rhétorique de l'image*. Paris. Editions de Seuil.
- A.K. Henrikson (1994). The power and politics of maps. In: *Reordering the World: Geopolitical perspective on the 21st century*. G.J. Demko and W.B.Wood Eds. San Francisco, Westview Press, 50-70.
- Hodge, R. & Kress, G. (1993). *Language as Ideology*: London; Routledge.
- Kress; G. (2003). *Literacy in the New Media Age*. London, Routledge.
- Kress, G. & Van Leeuwen, T. (1995). Critical Layout Analysis. In *International Schulbuch Forschung 17*, 25-43. Braunschweig . Zeitschrift des George-Eckert-Instituts.
- Kress, G. & Van Leeuwen, T. (1996). *Reading Images: The Grammar of Visual Design*. London. Routledge.
- Kress, G. & Van Leeuwen, T. (2002). Colour as a semiotic mode: notes for a
- grammar of colour. In: *Visual Communication*. 1, 343 -369. London
- and New-York. Sage Publications.
- Lemke, J. (1998). "Metamedia Literacy: Transforming Meanings and Media" In D. Reinking, L. Labbo, M. McKenna, & R. Kiefer (Eds.), *Handbook of Literacy and Technology: Transformations in a Post-Typographic World*. Hillsdale, NJ: Erlbaum. 283-301.
- Monmonier, M. (1996). *How to Lie With Maps*. Chicago, University of Chicago Press.
- Morgan, J. (2003). Investigating Images, in: *The Student's Companion to Geography*, second edition. Ma. USA. Blackwell Pub. 253-260.
- Ogbu, John and M.E. Matute-Bianchi (1986). Understanding Sociocultural Factors: Knowledge, Identity, and School Adjustment. In: *Beyond Language: Social and Cultural Factors in Schooling Language Minority Students*. Sacramento: California State Department of Education. Pp. 73-142. Cited in Cazden 2001:163.
- Oxford, S, Dorling, D., and Harris, R. (2003). Cartography and visualization. In: *The Student's Companion to Geography*, second edition. Blackwell Pub. Ma. USA. 151-157.